تاريخ

السودان القديم

﴿ تأليف ﴾

الدكتور

حسن كمال

خريج جامعتي اكسفورد ولندرا والعضو بالكلية الجراحية الانكليزية
وطبيب بمستشفى الحميات ومؤلف كتب الطب المصري القديم
والحمى الراجعة المصرية وعلم تدبير الصحة

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم بمصر

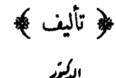
١٩٢٤

تاريخ

السودان القديم

﴿ تأليف ﴾

الدكتور



خريج جامعتي اكسفورد ولندرا والعضو بالكلية الجراحية الانكليزية
وطبيب بمستشفى الحميات ومؤلف كتب الطب المصري القديم
والحمى الراجعة المصرية وعلم تدبير الصحة

طبع بمطبعة المقتطف والمقطم بمصر

١٩٢٤





جلالة مولانا الملك فؤاد الاول

بسم الله الرحمن الرحيم

اما بعد . فلما كان السودان من أهم المواضيع التي تتداولها الامة المصرية في مفاوضاتها المقبلة مع بريطانيا العظمى رأيت ان اسرد لبني قومي تاريخ السودان القديم لا ثبت لهم حقنا في ذلك القطر ذلك الحق الذي يرجع تاريخه الى عشرات من القرون قبل الميلاد . ثم ان هذا الفرع من التاريخ لم تتداوله اقلام المؤرخين الا فيما ندر لذلك تحينت هذه الفرصة لسد هذا الفراغ التاريخي . ولقد كانت جريدة المقطم أول الجرائد التي بادرت بنشر محتويات هذا الكتاب على عدة دفعات فاتضح لها ان القوم كانوا يتتبعونها بكل ميل وشغف. قام حضرة يوسف افندي حسني من ارباب المعاشات بطبع هذا التاريخ على نفقته تعميماً للفائدة فجاء عمله هذا اعظم برهان على وطنيته وغيرته على تاريخ اجداده

وفي الختام نسأل الله ان يسدد خطانا وان يساعدنا على استرجاع مجدنا القديم واحياء تاريخنا العظيم في ظل مليكنا المحبوب فؤاد الاول . اطال الله بقاؤه . انه حميد مجيد

الدكتور حسن كمال

السوادن

اهميته عند قدماء المصريين

— ١ —

كثرت المكاتبات والمخاطبات هذه الايام عن السودان وأهميته لمصر وحقها فيه وذلك قبل الدخول في المفاوضات الرسمية بين مصر وبريطانيا فمصر تنادي بوجوب احتفاظها بالسوادن لانه مشرف على مياه النيل ولان موقعه الجغرافي والحربي مهم ولان خيراته كثيرة ولان الصلة الدموية بين أهالي القطرين عظيمة متينة

والغريب ان معظم الباحثين في هذا الموضوع يثبتون بياناتهم بحوادث تاريخية أو تجارية أو زراعية أو غيرها مما يرجع عهده الى القرن التاسع عشر بعد الميلاد وخصوصاً سنة ١٨٨٢ ايام ثورة المهدي لما كان عبد القادر باشا حلمي حاكماً على السودان . لكن علاقة المصريين بتلك البلاد المترامية الاطراف لا ترجع الى القرن التاسع عشر بعد الميلاد فقط بل الى أبعد من القرن التاسع عشر قبل الميلاد . نعم ان الحوادث الاخيرة الاستعمارية هي الاقرب الى الذهن والاكثر تداولا في المناقشات الان ذلك لايمنعنا من ان نسرد تاريخ حقنا خصوصاً اذا كان هذا الحق يرجع تاريخه الى حوالي خمسين قرناً من وقتنا هذا

ان علاقتنا بالسوادن لا تبدأ من أيام محمد علي الكبير لاجل الحصول على الذهب والتقاط الارقاء كما يدعي بعض كتاب الانكليز بل كانت موجودة منذ وجود المصريين بوادي النيل لان سكان القطر المصري والسودان يرجع أصلهم الى عنصر واحد أتى من بلاد آسيا عن طريق الصومال كما اثبت ذلك الاثريون

قال ديودور الصقلي ان الاتيوبيين يقولون ان مصر مستعمرة من مستعمراتنا وان طين بلادها طمي من بلادنا ساقه النيل اليها . وان بين عوائدنا وعوائد

المصريين مشابهة ظاهرة جلية فضلا عن المطابقة بين القوانين الرابطة لنا ولهم وعن تشابه الزي في ملابس ملوك البلدين خصوصاً ان كلينا يتخذ الصل زينة فوق التيجان. قال نافيل هذه الرواية المؤيدة لمجيء المصريين من ايتيوبيا كافية بمفردها لا ثبات ان أصل المصريين القدماء هم من بلاد العرب الجنوبية لان في الرواية اشارة الى ان أولئك الفاتحين بعد ما هاجروا من مواطنهم نزلوا على شاطئ البحر الاحمر في ايتيوبيا فوق الاراضي المصريه وأقاموا فيها زمناً قبل زحفهم على وادي النيل فلما دخلوه واظهروا فيه مبادىء الحضارة انتحل الايتيوبيون وجهاً لدعواهم قائلين انها مأخوذة عنهم وهذا بخلاف الواقع

فلما حل قدماء المصريين بالقطر المصري أسسوا فيه المدنية والحضارة فارتقى بذلك درجة رفيعة بين الامم وسادها حتى صار مضرباً للامثال من حيث الرقي والمعرفة . ولم ينس المصريون في وقت من الاوقات بلاد السودان التي كانت طريق مجيئهم الى مصر من بلاد العرب الجنوبية والتي أصبحت معمورة باقوام من نسلهم الاصلي المتحد معهم في القوانين والعوائد واللغة وكل شيء

فاذا كان هذا شأن السكان الاقدمين للقطرين المصري والسوداني فلا غرابة اذا وجدنا على أقدم الآثار الموجودة مايشير الى التعامل بين هذين القطرين وليلاحظ ان هذا التعامل كان يأخذ أحيانا شكل المنازعات والحروب ثم لا يلبث ان يرجع الحال الى اصله فيتحد القطران في المعيشة والمعاملة وتسودهما السكينة ويدرأ احدهما الخطر المهدد للآخر

وأقدم رواية تاريخة وردت عن اخضاع المصريين للسودان هي الموجودة في حجر (بالرمو) فقد ذكر فيه ان الملك (سنفرو) من العائلة الثالثة (سنة ٢٩٠٠ ق . م) غزا بلاد النوبيا وأسر سبعة آلاف من الاسرى رجالا ونساء وغنم الفين من الثيران والعجول . فلما آتى الى مصر شغل الاسرى باعمال الحكومة وخدم النساء في السراي الملكية . أما الثيران والعجول فبعضها ذبح للاكل والبعض حفظ

لتربية نتاجه لجودة نوعه . ولم يرد في ذلك الاثر اشارة ما الى استخراج الذهب من تلك البلاد

وفي عهد الملك (بيبي) الاول من العائلة السادسة (سنة ٢٦٠٠ ق . م) جمعت مصر جيشاً من السودانيين لاخضاع بعض القبائل العاصية في الجهة الشرقية من السودان . ثم في عهد العائلة الثانية عشرة كان السودان في قبضة المصريين القدماء وكان الجيش المصري حافظاً للنظام في تلك البلاد مشيداً للقلاع والحصون على جزر النيل وضفافه في جهات عديدة وبدأ المصريون يستخرجون الذهب من مناجم تلك البلاد حتى بلغت تجارة الذهب شأواً كبيراً ولسهولة المواصلات بين القطر المصري والسودان شق المصريون القدماء طريقاً للسفن بين صخور الشلال الاول أيام العائلة السادسة تحت اشراف المهندس المصري (أونا) سنة ٢٦٠٠ قبل الميلاد ثم اعيد ذلك ايام العائلة الثانية عشرة في زمن الملك (أوسرتسن) الثالث (سنة ١٨٥٠ قبل الميلاد) لتسهيل نقل الجيش والسفن الحربية والعدد اللازمة لا خضاع الاقاليم التي تتجاسر على شق عصا الطاعة على فرعون مصر

وهكذا تجنب المصريون مشقات الانتقال من سفن الى أخرى في جهة الشلال في تلك العصور الغابرة والعجب كل العجب ان هذه القناة التي حفرها لنا أجدادنا من آلاف من السنين محيت آثارها في هذه الازمنة وأهمل أمرها اهمالا شائناً بشرفنا وبتاريخنا حتى قال الاستاذ بتري «انه لم يفكر أحد من المصريين للآن في عمل مثل هذا الطريق المائي الذي كان يبلغ عرضه ايام الفراعنة اربعاً وثلاثين قدماً وعمقه اربعاً وعشرين قدماً تسير فيه السفن النيلية مهما كبر حجمها . واصبح المصريون الحاليون يكتفون بشريط حديدي لنقل بضائع القطر من احد طرفي الشلال الى الآخر»

— ٢ —

لما تبوأت العائلة الثانية عشرة عرش مصر بدأ ملوكها يبثون المدنية والعلم في أنحاء السودان ويستخرجون بهمة ونشاط الذهب من مناجمه الواقعة بجهته الشرقية ويشيدون القلاع والنقط العسكرية الى ما بعد الشلال الرابع أما القوات العسكرية فكان يقودها ضباط مصريون لغرضين أولهما ترحيل سكان السودان الى القطر المصري لخدمة الحكومة وثانيهما مراقبة نقل الذهب من مناجم السودان الى مصر

وجرت العادة ان القوات المصرية حيثما وجدت كانت تشيد معابد كبيرة كمراكز ينبعث منها النفوذ المصري الى سكان تلك الجهة . واقتضت الارادة الملكية أن يكون قائد الحامية ورؤساؤها وكهنة المعبد وخدمته وكتبته وعماله كلهم مصريين . وهؤلاء كانوا يبثون بين السودانيين عاداتهم وأخلاقهم . وكان أهل السوادن ينظرون الى المصري بشيء من الوجل لانهم كانوا يرونه متفوقاً عليهم بالنظام والادارة والكتابة وسبل الدفاع والتفاني في تنفيذ أوامر فرعون وارداته العظيمة

وفي عهد العائلة الثانية عشرة أدخل ضمن حدود القطر المصري ذلك القسم من السودان الواقع بين الشلال الاول والشلال الثاني . ثم شيد المصريون القلاع في جهة وادي حلفا المعروفة قديماً باسم بيهن لصيانة حدود مصر الجنوبية. وأسسوا علاوة على ذلك قلاعاً شمالي أبي سمبل لصيانة الطريق الموصل الى وادي علاكي شرقي السوادن حيث تستخرج الذهب . ثم بني أوسرتسن الثالث أحد ملوك العائلة الثانية عشرة قلعة في جهة سمنة على بعد أربعين ميلا من وادي حلفا جنوباً وجعل ذلك الموضع حد مصر الجنوبي ونصب هناك لوحاً أثرياً حظر فيه مرور السودانيين شمالا براً وبحراً واستثنى من ذلك التجار ورسل الحكومة القائمين بأعمال رسمية . وكان هذا الامر في السنة الثامنة من حكمه. وفي السنة السادسة عشرة من

حكم هذا الملك نصب جلالته لوحين حجريين كبيرين أحدهما في جهة سمنة والآخر في جهة جزيرة الملك وصف فيهما معاملته لاهالي السودان وطرق حربهم. ورماهم بالجبن والفرار امام العدو وبالغباوة وبتولية ظهورهم وقت صليل السيوف وادعى انه قتل كثيراً من رجالهم ونسائهم وحرق حصدهم وأتلف آبارهم واستعمل معهم كل وسائل القوة والجبروت ولم يعرف للآن السبب الحقيقي لنصب تلك الآثار في تلك الجهات لان السودانيين لم يعرفوا في تلك العصور الكتابة والقراءة كما ان المصرى الذي كان يذهب الى هنـاك لاشغاله الشخصية كان قليل الاهتمام بمطالعة أمثال هذه النقوش

ولم يعلم للآن منطقة السودان التي كانت تحت سيطرة ملوك العائلة الثانية عشرة بالضبط وكان الاستاذ ماسبيرو يظن ان النفوذ المصري كان واصلا الى جنوب نهر عطبره . وعليه ففرعون مصر كان ملكا على جزيرة مروة من قديم الزمن. كما ان الخدم والعبيد كانوا يرسلون الى مصر للقيام باعمال الحكومة والسراي الملكية من الجهة نفسها ولا يبعد ان يكون اوسرتسن الثالث قد اتبع نفس السياسة التي انتهجها آباؤه وأجداده . وكان الذهب يجلب من سنار بقوافل الى جزيرة مروة ومنها في الصحراء الى مدينة نبته حيث يوضع في السفن وينقل الى القطر المصري في النيل

وليلاحظ ان قلاع اوسرتسن الثالث وطلائع جنوده في جهة نبته كانت تستلم من قبائل السودانيين جزيتهم التي كانوا يدفعونها سنوياً للبيت المالك وترسلها الى القطر المصري تحت اشراف ضباط ورؤساء مصريين

اما التجارة بين مصر والسودان في ايام العائلة الثانية عشرة فكانت عظيمة . فما اكثر المصنوعات المصرية التي كانت تتدفق وقتئذ على الاقطار السودانية بقصد التجارة والمعاملة

ولما حكمت العائلات الثالثة عشرة والرابعة عشرة والخامسة عشرة والسادسة

عشرة والسابعة عشرة اضمحلت ادارة القطر المصري الداخلية في السودان وضعفت سلطته عليه فامتنع هذا عن دفع الجزية لمصر . ولا تزال معلوماتنا عن تلك العصور يسيرة جداً

وفي عهد العائلة الثامنة عشر امتدت السلطة المصرية الى قلب السودان فوصلت حدود مصر الى النهر الازرق ويلخص ذلك في انه لما طرد القائد أحمس العمالقة من مصر الى آسيا وجه همته الى السودان فقاتل قبائله التي كانت تعطل التجارة وتعبث بالامن واجبرها على دفع الجزية . ولكنه لما رجع الى مصر اعتصب السودانيون ثانية والحقوا الضرر بالمواقع والمعابد المصرية لا سيما الواقعة منها بين سمنة والشلال الاول فاعاد المصريون الكرة على السودانيين وهزموهم وقتلوا قائدهم المسمى تتعان واركان حربه وابادوا جيشه

ولما تبوأ امنمحعت الاول عرش مصر (سنة ١٥٨٠ ق . م) غزا السودان ووصلت جيوشه الى جنوب الخرطوم وكانت تعرف قديماً بارض الاغنام كما ورد ذلك على لوحة حجرية وجدت في جهة مروة . ومن ثم اقتنع المصريون باهمية السودان من حيث تجارته وذهبه وأهله فلم يستحسنوا ان تكون ادارته بايدي حكام اقاليمه العديدين . وعليه اصدر جلالة الملك امنمحعت الاول أمره بتعيين حاكم عام لذلك القطر ولقبه بحاكم الاراضي الجنوبية وقلد أبنه تحوتمس الاول سنة ١٥٥٧ ق . م ذلك المنصب ثم لقبه بامير كوش — وكوش هو الاقليم المعروف الآن بأتيوبيا . أما مسكن هذا الامير فكان في النوبيا الا انه كان يأتي احياناً الى مصر

وقسمت الاراضى الواقعة بين الشلال الاول والنيل الازرق الى عدة اقاليم لكل منها حاكم معين من قبل الملك ومسئول رسمياً الى أمير كوش عن حوداث اقليمه وهكذا ادخل المصريون نظام وطنهم الديني والاداري والسياسي في السودان واعتبروه اقليما من مملكتهم الاصلية



كيف استعمره قدماء المصريين

لما تبوأ تحوتمس الاول عرش مصر سنة ١٥٥٧ قبل الميلاد ارسل جيشاً جراراً واسطولا نيلياً ضخما الى السودان ليجبر اهله على دفع الجزية لمصر. ودارت بين السفن المصرية والسفن السودانية معركة بحرية انتهت بانتصار المصريين انتصاراً مبيناً فاغرقوا سفن العدو وجذبوا بعضها الى الشاطئ وقتلوا جانباً من رجالها ثم اغرقوا الباقي منهم . وعلقوا جثة قائد السودانيين بمقدمة سفينة الملك تحوتمس المذكور كي يشاهدها الجميع فيتعظوا بما اصابه . ثم رجع ملك مصر بعد ذلك الى قطره . وقد عثر على نقوش هيروغليفية على أحد صخور جزيرة جهة الشلال الثالث تتلخص في أن تحوتمس الاول اجتاز الصحارى واخترق الجبال فوصل الى بلاد لم تطأها اقدام إسلافه ولم ترها عيونهم . لكن بعض الأثريين يعتبر هذه الرواية مبالغة في الواقع

ولما توفي الملك تحوتمس الاول تولى الملك بعده تحوتمس الثاني فارسل تجريدة مصرية الى بلاد النوبيا لاخضاع القبائل العاصية ولجمع الجزية منها فلما ذهبت تلك القوة الى البلاد المذكورة حرقت حصيدها وقتلت منها خلقاً كثيراً وأسرت ابن رئيس كوش العاصي واحضرته الى مصر مع عدد كبير من الغنم واستدل من وجود اسم الملك تحوتمس الثاني على قلعة قمة ان تلك القلعة لابد انها اصلحت او شيدت من جديد في عصر ذلك الملك

ولم نهتد حتى الآن الى هل شن تحوتمس الثالث الغارات على بلاد السودان أو لا ولكن الثابت ان الحصون والقلاع والمعابد التي شيدت في عهد ذلك الملك فاقت كثيراً في العدد والضخامة ماشيده غيره من الفراعنة. واذا كان النفوذ المصري ممتداً حقيقة في السودان الى الجهات التي ذكرها تحوتمس الثالث على جدران طيبة فلا يبعد ان يكون ذلك النفوذ قد بلغ اقصى حدوده ايامه . فقد

ذكر نحو مئة واثنين وأربعين اسماً لاماكن في كوش والواوات كانت كلها تحت السيطرة المصرية ، ودلت الآثار على ان بلاد الصومال والواوات كانت تدفع جزية كبيرة الى تحوتمس الثالث في السنة العاشرة من حكمه لما انفرد بحكم مصر . وورد أيضاً انه بعد ذلك بسنتين ارسلت بلادالصومال الى القطر المصري ١٦٨٥ مكيالا من البخور وكمية كبيرة من الذهب والخدم رجالا ونساء وعدداً عظيما من الثيران والعجول والبقر والغنم الخ .ويظهر ان اهالي السودان اقتنعوا وقتئذ ان الاصوب لهم ان يرسلوا جزيتهم طائعين غير مترددين الى فراعنة مصر بدلا من المراوغة والماطلة التي تثير غضب الفراعنة فيرسلون جيوشهم على السودانيين عقابالهم على هذا التقصير فكانت العلائق بين السوادن ومصر في تلك العصور على غاية مايرام كماثبت ذلك من النقوش والرسوم البارزة على جدران معبد صغير لتحوتمس الثالث جهة سمنة . ويشاهد في هذه الرسوم المعبود (دد أون) أحد معبودات السودان القديمةمحتضناً تحوتمس الثالث ورافعاً ذراعيهفوق تاجه الملكي وبالقرب منهما كاهن يخاطب المعبود دد أون قائلا «لقد تبوأ ابنك تحوتمس الثالث عرشك . وورث سدتك وجعل نفسه ملك الملوك في هذه الارض فلن يتغير حكمه أبداً . فساعد روحه . وأجعل هوله في قلوب قبائل السودان المديدة واقليم الخرطوم.لان جلالته شيد هذا المعبد العظيم الضخم اكراماً لك واعترافا بفضلك» ولا يخفى ان هذه الرسوم والنقوش الدينية ذات تأثير معنوي عظيم على نفوس السودانيين لانهم لما عرفوا ان معبودهم ددأون سمح لملك مصر ان يحكم بلادهم بهذه الكيفية لم يجدوا أمامهم وسيلة يتذرعون بها للانفصال عن القطر المصري فحذوا حذو معبودهم نحو فرعون مصر

ولما تولى الملك (امنحتب) الثاني سنة١٤٤٨ قبل الميلاد بعد وفاة تحوتمس الثالث كان السودان هادئاً ساكناً وكانت السلطة المصرية نافذة في جميع انحائه بلا معارضة. فوصلت سلطة فرعون مصر الى النيل الازرق وشيد امنحتب المذكور معبداً هناك

بالجهة المعروفة الآن باسم وادي باع النجا حيث وجد تمثالان له في تلك الجهه . وكانت عاصمة السودان في تلك الازمنة هي مدينة نبته غربي جبل برقل بالقرب من الشلال الرابع . وقد ارسل (امنحتب) المذكور الى تلك العاصمة احد ملوك سورية واسمه ننا كيسا فقتله ونصب جثته هناك كي يتعظ السودانيون بسلطة المصريين حتى على بلاد آسيا. وقد أسر الملك (امنحتب) الثاني ستة ملوك سوريين آخرين قتلهم ونصب جثثهم على جدران طيبة ليثبت للملأ نفوذه القوي على البلاد الاجنبية

ولما توفي (امنحتب) الثاني سنة ١٤٢٠ قبل الميلاد تولي الملك بعده تحوتمس الرابع وكان السودان في أيامه هادئاً خاضعاً له خضوعاً تاماً . ثم توفي وتولى بعده (امنحتب) الثالث سنة ١٤١١ قبل الميلاد وكان السودان في أول حكمه طائعاً ساكناً الا انه في السنة الخامسة من حكم هذا الملك شقت بعض قبائل السودان عصا الطاعة على فرعون مصر فارسل هذا اليهم قوة لاخضاعهم . على انه يظهر من تقارير تلك الغزوة ان الاضطراب كان بسيطاً لان عدد الاسرى المقطوعي الايدي بلغ ٣١٢ أسيراً وعدد العبيد ٧٤٠ اسيراً أما الغنيمة فكبيرة جداً

ومما زاد في نفوذ (امنحتب) الثالث في السودان انه اعلن نفسه الهاً لذلك القطر فعبده الناس في المعابد العظيمة بالسودان وخصوصا المعبد الذي شيده جهة (صلب) على بعد مئة وخمسين ميلا من وادي حلفا الى الجنوب وكانت زوجته الملكة (تي) تعبد كالاهة أيضاً في معبد (سدنجه) الذي شيد باسمها على بعد بضعة اميال من (صلب) الى الشمال منها ولم يقتصر (امنحتب) الثالث على تشييد هذين المعبدين فقد وجدت آثار عديدة جهة دنقلة يرجع تاريخها الى عهد هذا الملك ويستدل من ضخامة معبد صلب وعظمته على ان السودان كان في تلك المدة ساكناً هادئاً وان ماليته كانت غنية وتجارته عظيمة والحكم المصري فيه مرضياً عنه في جميع الجهات

وهكذا حرص المصريون على السودان في قبضتهم القوية مدة مئة وخمسين سنة بلا نزاع ولامشاكسة تقريباً وصار السودانيون الذين يختلطون بحكم المعاملة مع المصريين يدينون بالديانة المصرية ويتكلمون لغة حكامهم ويعتادون عاداتهم ويتطبعون بطباعهم

تحت حكم توت عنخ آمون

لم يغز اخناطون (سنة ١٣٧٥ قبل الميلاد) السودان لانه كان مشتغلا بتعميم عبادة الشمس ومحاربة كهنة آمون والقيام بالاعمال الدينية في عاصمته الجديدة بتل العمارنة . فلم يكن عنده متسع من الوقت لادارة شؤون مستعمراته الاسيوية السودانية . لكن وجد في السودان آثار يرجع تاريخها الى عهد اخناطون وهي عبارة عن لوحين حجريين نقش عليهما اسم ذلك الملك وكانا مقامين بمعبد صلب الذي شيده امنحتب الثالث . وعلى هذين اللوحين رسوم ونقوش هيروغليفية تمثل اخناطون عابداً شبح أبيه امنحتب الثالث . ولقد حار الاثريون كثيراً في تأويل معنى هذه الرسوم لانها لاتطابق عقيدة اخناطون الشمسية . ولم يعثر للآن في السودان على معبد أو آثار معبد شيد لعبادة الشمس ولكن لا يبعد أن يكون هناك معبد صغير في جهة سدنجة لم يكتشف للآن كانت تعبد فيه الشمس شيده اخناطون أو الملكة (تي) امه . وذلك لان اسم الشمس باللغة المصرية القديمة وهو (اتون) وجد جزءاً من اسم بلدة في السودان ورد ذكرها في الآثار النوبية مرتين أو ثلاث مرات. وهذه البلدة كانت تسمى (باجم اتون) ويختزل ذلك الاسم احياناً فيقال باجم . ويظن ان اسم تلك البلدة الاصلي باجم ثم اضيف اليه اتون بانتشار عبادة الشمس الى تلك الجهة. ولم يعرف حتى الآن معنى جم اتون ولكن يستدل من اسم المدينة الذي يعنى معبد جم اتون — لان با تعني المعبد — ان جم اتون اسم المعبود الشمسي الذي كان يعبده اخناطون في جهة طيبة وتل العمارنة. ولم يثبت حتى الآن هل استمرت عبادة الشمس مدة طويلة في تلك البلدة

بعد اضمحلال هذه الديانة نفسها في الديار المصرية أو انها محيت في مصر والسودان في وقت واحد. وعلى كل حال فعبادة آمون رع رجعت ثانية في تلك البلدة بدليل ما وجد من نقوش يرجع تاريخها الى العائلة السادسة والعشرين تشير الى عبادة «آمون رع معبود بلدة باجم اتون». وبتوالي الازمنة ابدلت هذه العبادة بعبادة ازوريس وازيس وحوريس. اما مكان باجم اتون فلم يعلم بالضبط لكنه غالباً بين الشلال الثاني والشلال الثالث جنوبي صلب

ولما تولى الملك توت عنخ آمون عرش مصر سنة ١٣٥٧ قبل الميلاد غير ديانته من عبادة الشمس الى عبادة امون رع . ووردت نقوش على تمثال لاسد يرجع تاريخه الى عهد هذا الملك يستدل منها على ان توت عنخ آمون أقام آثاراً لابيه امون رع سيد «عروش قطري مصر» وللمعبود توم سيد مدينة عين شمس وللمعبود اعح المعبود القمري . ولا يبعد ان امون رع المذكور في هذا الاثر كان يعبد في تلك الاوقات في جهة جبل برقل بمدينة نبته وليلاحظ ان تعبير «عروش قطري مصر» كان يطلق احياناً اسما لمدينة نبته

ويستنتج من تشييد المعابد في السودان وتصليحها ان أهل ذلك القطر كانوا مستمرين على دفع الجزية لمصر وانهم لم يدركوا وقتئذ ان النفوذ المصري في آسيا بدأ يضمحل . وورد في الآثار ان السودان كان يدفع الجزية الى الملك آي سنة ١٣٤٩ ق . م . والملك حور محب سنة ١٣٥٠ ق . م . وان هذا الاخير زار السودان متفقداً أحواله . ووجد لوح أثري في جبل السلسلة عليه اسم الملك حور محب جالساً على عرشه محمولا فوق أعناق اثني عشر سودانياً . وفي أسفل ذلك نقوش يستدل منها على شدة بأس ذلك الملك وعظم رعب أهالي كوش منه

وورد أيضاً في جهات أخرى ان ارض الصومال كانت ترسل الخيرات الى الملك حور محب لكن لم نتأكد الى الآن هل كانت هذه الخيرات هي الجزية المقررة على تلك الاراضي للقطر المصري أو هي هدايا متبادلة بين حكام هذين القطرين

يرجع السبب في نجاح السياسة المصرية في السودان في تلك العصور الى ذكاء ومقدرة الحكام الذين كانوا يعينون بامر فرعوني ويلقبون (بامراء كوش) وجرت العادة انه اذا شقت بعض القبائل عصا الطاعة على فرعون مصر يرسل هـذا على جناح السرعة قوة حربية كبيرة تخضع الثائرين في معركة وتعاقب النوبيين وتحتكو أمتعتهم وتتلف بيوتهم . ثم ترجع تلك القوة الى مصر(بسلام) لذلك كان مركزحاكم السودان الملقب (بامير كوش) يتطلب حنكة وخبرة سياسية ليهدىء روع السودانيين بعدذلك العقاب ليجعل نفورهم من النفوذ المصري ضمن حدود ضيقة

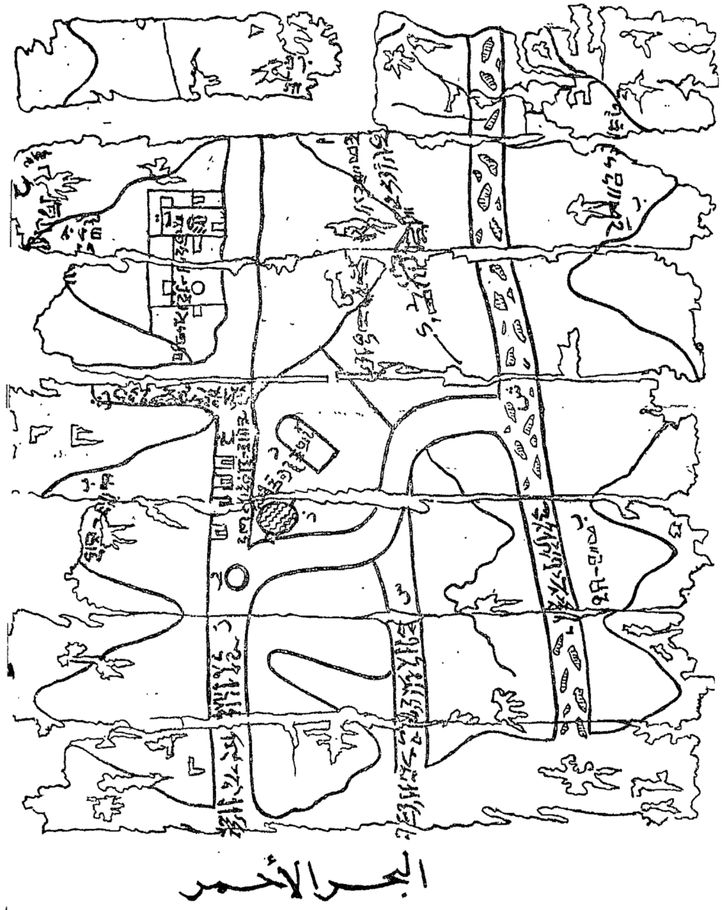
ومن أوائل حكام السودان الذين كانوا يعينون بواسطة فراعنة مصر الامير (سن) ابن تحوتمس الثاني (سنة ١٥٠٠ ق . م .) . وفي عهد الملك تحوتمس الثالث (سنة ١٤٤٠ ق . م .) تولى هذا المنصب الامير (نحى) . وفي عهدالملك (امنحتب) الثاني تولى المنصب نفسه ابنه (أوسرست) وفي عهد الملك (امنحتب الثالث) ١٤١١ق.م.) تولى حكم السودان ثلاثه حكام متتابعون وهم (مرى مس) و(هوى)و (امنحتب)واستمر الاخير منهم حاكما للسودان في عهد الملك اخناطون

ولنبحث الآن عن تاريخ السودان أيام العائلة التاسعة عشرة فنقول ان رمسيس الاول (سنة ١٣١٥ ق . م .) اكتفى ببسط نفوذه على جزء السودان الواقع بين الشلال الاول والثاني . لكن لما تولى ابنه (سيتي) الاول (سنة ١٣١٣ ق . م) وضع يده ثانية على السودان باجمعه مع صحاريه الشرقية والغربية . ووجه همته الى استخراج الذهب من المناجم الشرقية فحصن القلاع وأصلح الطرق الموصلة الى تلك المناجم . أما الطريق القديم الواصل الى هذه المناجم والذي كان يمتد من ردسيه جنوب ادفو الى البحر الاحمر فكان غير صالح للسير فيه لعدم وجود مياه وآبار . وليعلم ان طول هذا الطريق يبلغ نحو مئة وسبعين ميلا من نهر النيل . لذلك اصلح سيتي الاول هذا الطريق وحفر الآبار

اللازمة وأول بئر حفرت كانت على بعد ستة وثلاثين ميلا من النيل وكانت غزيزة المياه فشيد سيتي بجوارها معبداً للمعبودات (امون رع) و (ازوريس) و (حوريس) . ثم بدأت تنمو في هذه البقعة مدينة صغيرة سكنها العمال والتجار وبعض الناس ولم يعلم للآن موقع الآبار الاخرى بالضبط. لكن يستدل من نقوش قرية الردسية ان سيتي الاول فتح الطريق القديم الموصل الى مناجم الذهب وحفر مناجم أخرى بجانب القديمة منها ونظم سير القوافل بين البحر الاحمر ونهر النيل

استخراج الذهب

قال رمسيس الثاني سنة ١٢٩٢ قبل الميلاد انه حارب السودانيين وهجم عليهم كالثور القوي فسحقهم بقدميه كالثور الهائج وأصلاهم ناراً حامية بقرنيه العظيمين مخترقاً اقليم حنت — حن — نعر ومدينة نبته التي كانت تسمى وقتئذ كاري . ولا بد ان نقابل هذه التصريحات بتحفظ لانه لم تثبت حتى الآن صحتها ولم تصل الينا أخبـار أخرى عن هجوم رمسيس الثاني على السودان . والحقيقة ان المصريين عجزوا أيام رمسيس الثاني عن بسط نفوذهم على السودان حتى ان بلاد الصومال وما جاورها امتنعت وقتئذ عن دفع الجزية لمصر . كما ان الاعمال التي عملها سيتي الاول لاستخراج الذهب من السودان تحسب برهاناً آخراً على قلة الذهب في الخزينة المصرية . ولا يبعد ان تكون قلة الذهب قد استمرت أيام رمسيس الثاني لان هذا الملك اخبرنا بانه فكر في حفر حفائر لاستخراج ذلك المعدن في جهة اكيتا حيث شيد معبد لبتاح تقام فيه صلواته وتقدم اليه قرابينه . وان كمية الذهب التي وجدت في تلك الجهات كانت كبيرة الا انها كانت صعبة النقل الى نهر النيل . وذلك لان الطريق كان طويلا شحيح المياه حتى ان وفيات عمال تلك المناجم بلغت النصف بسبب العطش وزد على ذلك الخسارة التي كانت تلحق بالحيوانات كالحمير وغيرها . نعم انهم كانوا يستعملون القرب الجلدية لحفظ المياه الا ان كمية ذلك لم تكن كافية لارواء ظمأ جميع العمال في ذهابهم الى المناجم ومكوثهم بها ورجوعهم



خريطة لمناجم الذهب بوادي شوانب وجدت على ورقة بردية محفوظة بمتحف تورينو بايطاليا . ويلاحظ في هذه الخريطة ان حرف ب يشير الى جبال الذهب ، ت الى محراب للمعبود آمون ، ث الى جهة جبل ، ج الى مسكن المعبود آمون ، ح الى موضع اهل آسيا ، خ الى مساكن يوضع فيها الذهب ، د الى محل اللوح الحجري الذي نصبه الملك سيتي ، ذ الى بئر ماء ، ر الى بئر ثاني صغير ، ز ، س الى طريقين ، ش الى طريق به محار كثير لقربه من البحر

الى نهر النيل . لذلك جمع رمسيس الثاني كبار دولته ومنهم أمير كوش أو حاكم السودان ليبحثوا عن طريقة لجلب الذهب من مناجم أكيتا. فقال حاكم السودان ان طريق اكيتا شحيح المياه والعمال يموتون عطشاً وكثيرون من الفراعنة حفروا اباراً هناك من غير جدوى لعدم وجود مياه بها ومنهم الملك سيتي الاول (سنة ١٣١٢ ق . م) . فقد حفر هناك بئراً عمقها مئتا قدم فلم يصل فيها الى ماء فتركها

ومع ذلك كله صمم رمسيس الثاني على حفر بئر في طريق اكيتا وأصدر أمره بذلك الى حاكم السودان . فجمع العمال واتم الحفر . فعثر لحسن الحظ على الماء على عمق ٢٠ قدماً فقط

وطريق اكيتا يبدأ من الدكة ومن ثم الى وادي علاكي . ويلاحظ ان هذه المناجم بدأ العمل فيها أيام العائلة الثانية عشرة سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد ثم تركت حتى العائلة السابعة عشرة سنة ١٦٠٠ . ق م . وأعيد العمل فيها في أيام القياصرة والعرب بواسطة المسجونين وذلك حتى القرن الثاني عشر بعد الميلاد . ويجد السائح الآن جهة وادي علاكي أدوات الحفر التي كان يستعملها العمال هنالك لاستخراج الذهب وكان كثيراً في تلك الجهات

ولما تولت العائلة التاسعة عشرة الحكم سنة ١٣٥٠ ق . م . كان السودان هادئاً ساكناً يدفع الجزية لمصر بلا تعب فلم يكن ثم حاجة الى الغزو وطرق الارهاب . وكانت التجارة يانعة والمعاملات كثيرة . ولا بد ان يكون السودان قد انتفع كثيراً من الخصب والتقدم اللذين كانا ضاربين أطنابهما في أيام هذه العائلة وخصوصاً في عهد رمسيس الثاني . فبدأ السودانيون يتطبعون بطباع المصريين ويتعودون عاداتهم . وصارت نبتة عاصمة السودان طيبة الثانية . وأصبحت المعبودات المصرية تعبد في السودان مع معبوداته الاصلية جنباً الى جنب. وهكذا أخضع رمسيس الثاني السودان واستأثر بالتجارة من غير التجاء الى استعمال القوة الغشومة . واتبع البطالسة الطريقة عينها في السودان فاكتسبوا ذلك الاقليم بلا حروب كبيرة ولا مجهودات عظيمة

ولما تولى رمسيس الثالث الحكم سنة ١١٩٨ قبل الميلاد ظل متبعاً سياسة رمسيس الثاني وجعل همه تشجيع التجارة مع السودان والامتناع عن الحروب . فلم يترك وسيلة صغيرة ولا كبيرة للتجارة مع السودان الا اتبعها . وابتكر طرقاً جديدة لجلب خيرات ذلك الاقليم توفر المشقات والمصاريف الباهظة . فابدل القوافل التي كانت ترسل الى جهات السودان المختلفة لجلب المر والبلسم والحجارة الكريمة الخ بسفن خصوصية لشحن تلك المحصولات الى مصر عن طريق البحر الاحمر . ولم يعرف بالضبط المكان الذي كانت ترسو فيه تلك السفن على شاطئ الصومال . لكننا نعلم ان ميناء القصير هو الميناء المصري الذي كانت تلك السفن ترسو فيه وهي آتية من الصومال مشحونة بخيراته . وكان يرد على ميناء القصير معدن النحاس الذي كان يستخرج من جهة وادي المغارة وصربوت الخادم بشبه جزيرة سينا في سفن خصيصة لذلك — كل هذه الواردات كانت تنقل من القصير الى قفط على ظهور الحيوانات مخترقة في سيرها وادي الحمامات . وتشحن تلك البضائع من قفط في سفن نيلية الى منف ومدن اخرى كبيرة والى بعض البلاد الجنوبية .

ولقد أحدث هذا الطريق التجاري الجديد تأثيراً عظيما في علاقة السودان بالقطر المصري . فبعد ما كان أهالي القطرين يتعاملون بعضهم مع بعض شخصياً أصبحت السفن واسطة التعامل بين القطرين . وهكذا اضطر المصريون الى تشييد القلاع والحصون في السودان للمحافظة على نفوذهم وتجارتهم فيه

لا جدال في ان هذا المشروع أتى بفوائد تجارية عظيمة . فالسرقة في البحر الاحمر وطريق وادي الحمامات كادت تكون معدومة . زد على ذلك ان البضائع كانت تنقل بأسرع من المعتاد قبلاً وبقيمة أرخص وتصل في حالة أحسن ثم ان موت العمال والحيوانات وانهاك القوى كل ذلك أصبح في خبر كان. ولكن يلاحظ ان هذا المشروع أضر بالنفوذ المصري في السوادن كثيراً وخصوصاً ان رمسيس الثالث كان يعتقد ان التجارة أكثر فائدة من الحرب حتى قال ما معناه

« كان رجال جيشي من مشاة وفرسان يسكنون المدن في عهدي نائمين على ظهورهم بلا حرب لا في كوش ولا في سورية . فكانت أسلحة الحرب موضوعة في الحقائب بالمنازل وكان الرجال يأكلون اللحوم الكثيرة ويتعاطون المشروبات الوافية ويعيشون مع زوجاتهم في راحة وسرور . فلا يخافون تقلبات الزمان لان الفرح كان شاملا قلوبهم وبالغاً منها الدرجة القصوى »

هجرة كهنة امون رع اليه

لا بد أن تكون مالية الدولة المصرية أيام رمسيس الثاني سنة ١٢٩٢ ق . م . والثالث سنة ١١٩٨ ق . م عظيمة جداً . وان مقدار الذهب الذي دخل القطر المصري كبيراً جداً يضيق عنه نطاق الحصر . فقد وصف ديودور الصقلي مقبرة يغلب انها لرمسيس الثاني او الثالث قال انه شاهد بها لوحة حجريه مرسوم عليها الملك يقدم للمعبودات المقادير العظيمة من الذهب والفضة التي كانت تستخرج من مناجم مصر سنوياً . وتقدر هذه الكمية بثمانين مليوناً من الجنيهات المصرية بالعملة الحالية . وهذا الذهب كما لا يخفى كان وارداً من غرب بلاد الحبشة واقليم النيل الازرق ومناجم وادي علاكي

ولما تولت العائلة العشرون الحكم بدأ النفوذ المصري في السودان يضمحل وظهرت على حكام اقاليم السودان علائم القوة والرغبة في الاستقلال والانفصال من القطر المصري . وفي آخر أيام هذه العائلة بدأت دلائل الافلاس تظهر على خزينة المعبود (امون رع) بطيبة فعسر على كهنة ذلك المعبود ان يقوموا بالاحتفالات والشعائر الدينية المتبعة واضطروا الى أن يبحثوا عن المال . ويرجع هذا الافلاس الى عدم اشهار الحروب في آسيا والسودان تلك الحروب التي كانت تعود بالغنائم الكبيرة على المعابد المصرية والى عدم دفع تلك البلاد الجزية للمملكة المصرية فساءت الحالة المالية كثيراً واخيراً سمح الملك رمسيس التاسع سنة ١١٤٢ قبل الميلاد لرئيس كهنة امون رع بطيبة ان يزيد العوائد على المصريين لجمع المال اللازم . ولما توفي

رمسيس الثاني عشر سنة ١٠٩٠ قبل الميلاد اغتصب رئيس كهنة امون رع المسمى (حرحرو) عرش مصر وذلك سنة ١٠٨٥ قبل الميلاد. ولكن هذا الكاهن كان ضعيفاً قليل البأس لم يطعه اهل الوجه البحري فضاقت سلطته وضعفت مقاومته لغزو الاجانب ثم فشت السرقات في طيبة وعلى الاخص بالمقابر الملكية واقفلت المحاجر وهدد الجوع والخراب سكان القطر المصري

بعد ذلك أعلن الوجه البحري استقلاله عن الوجه القبلي وولى عليه ملكاً يقال له (نس بادد) المعروف عند اليونان بسمنديس واصبح القطر المصري محكوماً بملكين . ومما يثبت ضعف الكاهن (حر حرو) وقلة حيلته انه لما هدد النيل معبد آمون رع بطيبة بالغرق عجز (حر حرو) عن ترميمه واتخاذ الاحتياطات اللازمة فأتى الملك (نس بادد) وارسل ثلاثة آلاف عامل الى تلك الجهة لاصلاح المعبد وعمل ما يلزم له واجبر الاهالي على مساعدة العمال في ذلك . وهكذا ظهر عجز الكهنة عن ادارة شؤون البلاد حتى اصلاح معبدهم وكبح جماح سارقي المقابر الملكية

واخذت الحال في الوجه القبلي تتغير من سيء الى اسوأ حتى سنة ٩٦٠ ق. م. لما تولى الملك شيشنق الاول عرش مصر وهو أول ملوك العائلة الثانية والعشرين وشيشنق هذا هو المذكور في التوراة باسم شيشاق وهو ابن الرئيس الليبي (بيواوي) توصل الى الملك بواسطة زوجته . فلما توفي شيشنق الاول عام ٩٤٥ ق . م تولى بعده ابنه اوسوركون الاول سنة ٩٢٤ قبل الميلاد وهذا عين ابنه أوبت حاكماً على السودان وجعل مركزه مدينة طيبة . فبدأ هذا الحاكم يعمل التصليحات والترميمات وشرع في تحسين احوال البلاد الداخلية والخارجية . لكنه وجد نفسه عاجزاً عن منع سرقة المقابر الملكية فصمم على جمع جثث الملوك السابقين في مكان واحد واودعها جميعاً في مقبرة الاميرة (أست — ام خبيت) بالدير البحري . وهذه المقبرة يتوصل اليها ببئر عميقة يبلغ عمقها مئة وثلاثين

قدماً يبدأ من اسفلها دهليز طوله مئتا قدم ينتهي بحجرة التابوت · فوضعت في هذا الدهليز جميع الجثث الملكية مع امتعتها واوانيها وذهبها واوراقها البردية وصناديقها الخ ثم سد هذا الدهليز ببناء محكم وطويت البئر بالحجارة وأخفيت معالمها فبقيت الجثث محفوظة فيها سبعة وعشرين قرناً

وجرت العادة ان الكهنة كانت تذهب الى المقابر الملكية لتقيم الصلوات وتقدم القرابين صباحاً ومساء · لكن لما نقلت الجثث الملكية على الطريقة المذكورة أصبح معظم كهنة طيبة عاطلين . فاتضح للقوم عجز هؤلاء الكهنة عن المحافظة على منزلتهم وكرامتهم وبدأ الاهالي يملون عبادة امون رع ويعكفون على ازوريس · فبدأ معبد هذا الاخير بالعرابة المدفونه يعلو شأناً ويرتفع مقاماً وذلك بمساعدة (أوبت) الا اننا لا نزال نجهل مقدار تلك المساعدة التي قدمها ذلك الحاكم لهذا الانقلاب الديني العظيم

ثم أيقن كهنة امون رع ان أيام مجدهم أنقرضت وان لا مناص لهم من الهجرة الى محل أوفق لهم من طيبة . . فلما رأو الوجه البحري مقفلاً في وجوههم عمدوا الى الجنوب فوجدوه مفتوحاً أمامهم ووجدوا أيضاً معبودهم امون رع يعبد هناك . ورأوا كثيرين من المصريين عائشين في السودان وعلى الاخص في الجزء الواقع بين الشلال الاول ونبته عاصمة السودان القريبة من الشلال الرابع . وليلاحظ ان مدينة نبته كانت مركزاً عظيما لعبادة امون رع وهي واقعة في اقليم دنقله الذي اشتهر من قديم الزمان بخصب التربة وبكونه محطة للقوافل التي كانت تسير بين مصر والسودان

فبناء عليه قرر كهنة امون رع في طيبة الهجرة الى نبته فجمعوا موميات أجدادهم ودفنوها في محل مخصوص كما فعل (اوبت) بالموميات الملكية . بعد ذلك بدأوا يهجرون طيبة متجهين نحو نبته ومؤملين ان يقابلوا هناك بالمساعدة اللازمة والاكرام اللائق

انقلاب العلاقات السياسية

لم تهتد الى الآن الى مبلغ نفوذ كهنة (آمون رع) في الادارة النوبية بعد ما هجروا طيبة عاصمة مصر واتجهوا الى نبته عاصمة السودان . لكنه يستدل من نقوش حجر بعنخي انهم وطدوا النفوذ المصري في السودان ونشروا فيه عبادة آمون وحرضوا ملوكه على التشبه بملوك مصر وعمموا التعليم وادخلوا الخط الهيروغليفي في المعاملات الرسمية . لذلك كان الملك بعنخي النوبي يجل آمون ومعبودات مصر العظمى . ولما انتصر هذا الملك على المصريين وفتح بلادهم دون اعماله بالخط الهيروغليفي على شواهد حجرية ضخمة متقلداً في ذلك الملك اوسرتسن الثالث سنة ١٨٧٧ . ق . م وتحوتمس الثالث سنة ١٤٤٧ . ق . م وامنحتب الثالث سنة ١٤١١ ق . م وغيرهم واظهر بعنخي كل شفقة وحنو على مصر حتى ظنه الاثريون مصري الاصل ومع انه كان يسفك دماء مقاوميه ومعارضيه الا انه لم يخرب البلاد ولم يفتك بالابرياء ولم يحرق الزرع والامتعة كما كان يعمل كل مغتصب وقاهر في تلك العصور البعيدة

ولما وصل كهنة آمون الى بلاد النوبيا بدأوا يرقبون سير الحوادث في القطر المصري . فلاحظوا ان ملوك العائلة الثانية والعشرين التي حكمت مصر نحو مئتي سنة انقرض عهدهم . وحلت بالقطر المصري الفوضى والاضطرابات نتيجة المنازعات بين امراء الوجه البحري الذين جعلوا دأبهم الحصول على عرش مصر غير مكترثين لاحوال السودان . وكان كهنة آمون في ذلك الزمان يشتغلون في نبته طي الخفاء ويتحينون الفرص لحمل ملك السودان على غزو مصر ووضع حد لذلك النزاع القائم بين حكام اقاليمها العديدين وكان هؤلاء الكهنة يعدون السودان ملكاً لهم يتصرفون فيه كما يشاؤون ويهوون لانه تحت حكمهم ونفوذهم من قديم الزمان وكان رئيسهم المسمى حرحرو حاكماً على القطر المصري والسودان وأمير كوش ورئيس المالية على نحو ما ذكرت في مقالي السابق

ولا يبعد ان اتباع هؤلاء الكهنة في طيبة كانوا يوافونهم باخبار القطر المصري الداخلية واضطراباته ومنازعاته . فاخذ كهنة آمون يتحينون الفرص لبسط نفوذهم الديني على القطر المصري واعلاء مقام معبودهم الى مقامه السابق. وكان كهنة آمون على الدوام اليد المحركة لادارة شؤون القطر المصري في السودان وذلك من سنة ١٦٠٠ ق . م الى سنة ١٠٥٠ ق . م ابام الفراعنة العظام . فلما هاجر هؤلاء الكهنة الى السودان تذرعوا بنفوذهم الديني ليؤثروا في ملوك السودان وتكون لهم الكلمة العليا في ادارة شؤونه. فجعلوا يقنعون حكام السودان بان ادارة آمون هي الادارة العليا وانه هو المعبود الوحيد الذي يعين الملوك ويدير البلاد بأوامر يصدرها الى كهنته . وان في امكانه ان يجعل ملك السودان سيد القطر المصري وسائر العالم

وغني عن البيان ان هذا المشروع كان يتطلب ملكاً عظيم البأس قوي السلطة مطيعاً لأوامر أمون اطاعة عمياء ليعطي كهنة ذلك المعبود ما يغنمه في الحروب . وكان معبد أمون في طيبة أيام العائلة الثامنة عشرة غنياً بالغنائم التي اكتسبها ملوك تلك العائلة . كما ان ملوك العائلتين التاسعة عشرة والعشرين كانوا يجودون بسخاء على ذلك المعبد لوفرة اموال الخزينة المصرية ورواج التجارة وكثرة الحفائر الى غير ذلك . لذلك اتبع كهنة أمون في نبته طريقة اجدادهم فجعلوا ملوك السودان يغزون مصر ويغدقون عليهم اموالها وخيراتها

واول ملك سوداني ادعى السلطة على مصر هو كاشتا وقد ورد اسمه مكتوباً في خانات ملكية وملقباً « سلطاناً » و«ملك الوجه القبلي » و«سيد القطرين » . ولفظ كاشتا يدل على انه نوبي وليس مصرياً . وكان هذا الملك متزوجاً بملكة تدعي بانها رزقت منه بولدين احدهما بعنخي والآخر شاباكا . ولم نعلم عن تاريخ كاشتا شيئاً الا ان له نفوذاً على الوجه القبلي وادارة شؤون طيبة بقدرة وكفاءة وذلك في اوائل القرن الثامن قبل الميلاد . ثم توفي وحكم بعده بعنخي في نبته من سنة ٧٥٠ ق . م الى سنة ٧٤٠ ق . م وغزا القطر المصري واظهر من البسالة والرأفة

بالمصريين ما يستحق الاعجاب . ووجدت اعمال هذا الملك مدونة على أثر عظيم بالسودان مع آثار أخرى خطيرة الشأن سيأتي الكلام عليها هذا وقد استدل من هذه الآثار على كيفية اخضاع اقاليم الوجه القبلي والبحري بجيش بيعنخي واسطوله

ولما دانت مصر لبعنخي الحقهـا ببلاده وابقى لرؤسائها الامتياز . وجعل « تفنخت » المصري ملكاً عليهم بالنيابة بعد ما كان رئيساً للجيوش المصرية فاستقر في صا الحجر مركز حكومته القديمة

اما بعنخي فبعد ما طهر مصر من عصاتها رجع الى وطنه واستقر في مدينة نبته ونقل اليها تخت الملك بعد ما كان في طيبة ومنف . ثم ادركته منيته بعد ذلك بزمن قصير فتبوأ الملك اخوه شاباكا أول ملوك العائلة الخامسة والعشرين وذلك سنة ٧١٢ قبل الميلاد

اكتشاف مصري عظيم

ترجع معلوماتنا عن تاريخ الملك بيعنخي السوداني وغزوته للقطر المصري الى النقوش الهيروغليفية التي وجدت على حجر اثري من الجرانيت يبلغ طوله اثنتي عشرة قدماً وعرضه اربعة اقدام ونصف قدم تقريباً وسمكه قدم.أما مكتشف هذا الحجر فضابط مصري من الذين كانوا يشتغلون في السودان أيام المرحوم الخديوي سعيد باشا مؤسس متحف بولاق . ومن بواعث الاسف اننا لم نهتد بعد الى اسم هذا الضابط المكتشف ليحفظ له التاريخ فضل اكتشافه ورفعة منزلته بين مكتشفي الآثار في العالم

روى الاستاذ ماسبرو الاثري ان هذا الضابط المصري كان آتياً من السودان في سفينة نيلية فاضطرته الاحوال ان يقضي بضعة ايام في القرى المجاورة لجبل برقل الذي يبلغ ارتفاعه ثلاث مئة قدم قرب الشلال الرابع على شاطىء النيل الشرقي .

وقبالة هذا الجبل على الشاطيء الغربي آثار مدينة نبته عاصمة السودان القديمة التي احرزت مقاماً عظيماً بين سائر مدن العالم أيام عزها ومجدها القديمين . وقد اكتشفت القوة المصرية الانكليزية آثار هذه المدينة عام ١٨٩٧ ميلادية وكانت منهمكة في بناء مساكنها جهة صنم أبو دوم فعثرت على بقايا منازل ومعابد قديمة على عمق ست أقدام تحت سطح الرمال

وشرقي جبل برقل سهل فسيح استعمله ملوك النوبيا منذ عهد بيعنخي لبناء معابدهم الضخمة وقرب ذلك السهل تل صغير شيدت عليه عدة اهرامات بناها هؤلاء الملوك لتكون مقابر لهم . كل هذه المعابد وجدت خربة مدمرة وخصوصاً القريب منها الى الجبل لانه كان هدفاً للصخور الساقطة من قمة ذلك الجبل . أما المباني البعيدة فلكونها غير متينة البناء لم تبق قائمة زمناً طويلاً على ما قال علماء الآثار

وفي ١٨٩٧ توجه الدكتور وليس بدج الاثري الانكليزي الى تلك الجهة فوجد ذلك السهل يشبه جبانة كبيرة تغطيها الرمال . ووجد فيها احجاراً مبعثرة بعضها أعمدة وبعضها بلاط أرضي والبعض الآخر من جدران شامخة ورأى على بعضها نقوشاً اثرية . واتضح له ان سكان السودان كانوا في ذلك الحين ينقلون تلك الاحجار ليبنوا بها بيوتاً ومقابر وسواقي الى غير ذلك . وبالرغم من احتلال السودان سنة ١٨٩٨ فان هذا النهب لم يقف عند حد لأن هذا الأثري الانجليزي لما عاد الى تلك الجهة عام ١٩٠٥ لم يجد بقية من الآثار التي شاهدها في جهة دجلو اثناء رحلته الاولى ولاحظ أيضاً ان كثيراً من منازل السودانيين مشيد من احجار معبد صلب الاثري القديم

لنرجع الآن الى الضابط المصري فنقول : لما اضطرته الاحوال لان يمكث في جهة جبل برقل بضعة ايام ذهب ليتفقد آثار تلك الجهة فوجد داخل معبد الملك طهراقه شواهد حجرية مستديرة القمم عليها نقوش هيروغليفية وخانات ملكية . والغريب ان بعض الاثريين المشهورين كالمسيو كايو والمستر هوسكنس والهر

لبسيوس زاروا هذا المكان قبله الا انهم لم يلتفتوا الى تلك الآثار وربما سها عنهم ذلك . قال لبسيوس انه لما زار تلك الجهة سنة ١٨٤٤ اخذ من هناك آثاراً قديمة كمذبح صغير وتمثال لازيس عليه نقوش مروية وقاعدة لتمثال نسر وغير ذلك فلو وقع نظره وقتئذ على الاحجار الاثرية التي نحن بصددها لما سمحت له نفسه بتركها بل كان قد اخذها في الحال وبعث بها الى متحف برلين كما فعل اقرانه السابقون . ولكن الله اراد أن تكون هذه الآثار ملكاً للمتحف المصري في القاهرة وان يكون اكتشافها على يد الضابط المصري المجهول

ولا يبعد ان هذه الاحجار الاثرية كانت مغطاة بطبقة من الاحجار استعملها الاهالي لبناء بيوتهم في الزمن الواقع بين سنة ١٨٤٤ وسنة ١٨٦٤ ميلادية . فلما نقلت طبقة الاحجار العليا ظهرت تحتها الاحجار الاثرية المذكورة . قال ماسبيرو ان الضابط المصري كان له المام وشغف بتاريخ وطنه القديم مكنناه من ان يقدر اهمية إكتشافه الاثري . فحفر هناك حفائر وعثر على خمسة شواهد حجرية اثرية عظيمة القيمة . ولجهل هذا الضابط النشيط لغة اجداده الاقدمين عسر عليه قراءة نقوش تلك الاحجار . ومع ان ماريت باشا الاثري صرح له المرحوم الخديوي سعيد باشا عام ١٨٦١ ان يبحث عن الآثار في السودان الا انه لم يقم بذلك لبعد المسافة واصعوبة المواصلات الى الاماكن التي يراد الحفر فيها . ولكن سرعان ما انتشرت اخبار الضابط المصري بين الناس وقتئذ لانهم كانوا يعتقدون انه ذهب الى هنالك ليبحث عن كنوز قديمة توصل الى معرفة مكانها بكتب قديمة ومعلومات عتيقة

فلما رأى الضابط المصري تلك النقوش الهيرغليفية على الآثار المذكورة لاحظ فيها ايضاً خانات ملكية في داخلها اسماء ملكية ايضاً فايقن حينئذ باهمية اكتشافه فنقل تلك النقوش بخط يده على قدر استطاعته مبتدئاً بأكبر الاحجار وأرسل نسخة من ذلك الى ماريت باشا مدير مصلحة الآثار المصرية بالقاهرة وقتئذ ورغم وجود بعض اغلاط خطية اتت سهواً في كتاب ذلك الضابط ووجود بعض الخطأ

والتلف في نقوش الحجر الاصليه فقد تمكن ماريت باشا من معرفة مضمون تلك النقوش واتضح له وقتئذ اهمية ذلك الاثر العظيم . ففاوض الحكومة المصرية وطلب منها ان تأتي بتلك الآثار الى متحف القاهرة فارسلت الحكومة اوامرها الادارية الى حاكم دنقله ليرسل تلك الآثار الى القاهرة على جناح السرعة ويقيم لها حراساً في جهة جبل برقل وفي اثناء الطريق اليها ويمنع كل أحد لا علاقة له بالامر من الاقتراب منها ويحترس كل الاحتراس من تجار الآثار الذين كثيراً ما يفدون الى كل جهة يعثر فيها على آثار قديمة . وبناء على ما تقدم ارسل حاكم دنقله القوة اللازمة لذلك وشحن تلك الآثار في سفن نيلية في صيف سنة ١٨٦٢ من مدينة نبته وأمر ربانيها بالسفر الى القاهرة توا

نتيجة اكتشاف الضابط المصري

ذكرنا في مقالنا السابق ان الآثار التي وجدت في السودان في جهة نبته قرب الشلال الرابع التي اكتشفها الضابط المصري أرسلت بطريق النيل الى القطر المصري في سنة ١٨٦٢ ميلادية بامر الحكومة المصرية وقلنا أيضاً ان هذا الضابط اجتهد في نقل نقوش أكبر تلك الاحجار وارسالها الى مريت باشا مدير مصلحة الآثار المصرية وقتئذ . وانه اتضح لمريت باشا أهمية ذلك الاكتشاف . وبناء عليه اصدرت الحكومة المصرية أمرها الى حاكم دنقله بارسال تلك الآثار الى القاهرة

والآن نذكر القارىء بان مريت باشا أجهد نفسه في حل الرموز والرسوم التي أرسلها اليه الضابط المصري واستمر كذلك حتى عام ١٨٦٣ لما أعلن لمعهد الفنون الجميلة في فرنسا اكتشاف الضابط المصري الخاص بحجر الملك بعنخي النوبي . ثم أرسل بعدئذ صورة خطاب الضابط المذكور الى العالم الاثري ده روجيه عام ١٨٦٣ وشمله بملاحظات عن ذلك الاثر ورجا منه ان يرسل اليه ترجمة نقوش الاثر جهد الاستطاعة فترجمه المسيو ده روجيه ترجمة جيدة نشرها في مجلة العاديات

الفرنسوية عام ١٨٦٣ بعنوان « نقوش أثرية للملك بعنخي » وليت ده روجيه أنصف الضابط المصري وقدر اشتغاله ومجهوده رغم جهله باللغة المصرية القديمة بل كتب قائلاً ان ذلك الخطاب كان صعب الترجمة اذ يظهر انه كتب بيد غير متمرنة يغلب انها يد « أحد العرب الخفراء » . وذلك تهكم شنيع لا ينساه له التاريخ لانه مع نكرانه لجميل الضابط المجهول فانه اهانة لا ينبغي ان تصدر من عالم كالاستاذ ده روجيه .

وفي سنة ١٨٦٣ اتى المسيو ده روجيه الى القطر المصري وقضى فيه بضعة ايام زار اثنائها المتحف المصري ببولاق ظناً منه انه سيجد وقتئذ حجر بعنخي المذكور فيقارن خطاب الضابط المصري بالنقوش الاصلية . الا ان الاحجار الأثرية المذكورة لم تكن قد وصلت وقتئذ من جهة نبته . لان السفن المقلة لها لما وصلت الى الشلال الثالث تعسر عليها اختراق ذلك الشلال لهبوط مياه النيل وقتئذ . فاضطرت ان تمضي شتاء سنة ١٨٦٢ منتظرة صيف سنة ١٨٦٣ . فلما جاء الصيف ارتفعت مياه النيل وسافرت السفن مسافة طويلة فوصلت الى الشلال الثاني حيث هبطت مياه النيل فاضطرت ان تقضي الشتاء هنـاك وتنتظر الصيف التالي . فلما ارتفع منسوب النيل عام ١٨٦٤ استمرت في سيرها فبلغت القاهرة في آخر تلك السنة

ولقد اظهر الرجال المنوط بهم احضار تلك الآثار الى القطر المصري همة وصبراً عظميين استحقوا عليهما الشكر الجزيل لانه لا يخفى على القارىء صعوبة نقل تلك الاحجار الكبيرة بسفن نيلية تسير تارة بالقلع واحياناً بتيار المياه وطوراً بشد الحبال . كما ان اختراق الشلالات امر صعب على السفن حتى في احسن الاوقات وعلى ذلك فنقل تلك الآثار من نبته الى مصر اعتبر برهاناً ساطعاً على براعة رجال السفن النوبية في ذلك الحين .

ولما وصلت تلك الآثار الى القاهرة طلب مريت باشا من الاستاذ ديفيرا ان ينقل نقوشها ففعل وجمع مريت تلك النقـوش ونشرها في مجلة العاديات

الفرنسوية عام ١٨٦٥ بعنوان « اربع صحائف عن نصوص رسمية اتيوبية » وبعد ذلك بسنتين طبع مريت باشا اشغال دفيريا في مجلد بباريس عام ١٨٦٧ . لكنه لم تمض بضعة أيام على عرض نسخ ذلك الكتاب للبيع حتى جمعت النسخ ثانية واعدمت ولم نهتد للآن الى سر هذا العمل . ولكن بعضاً نجحوا في شراء نسخ من ذلك الكتاب قبل اعدامة

وفي سنة ١٨٦٨ بدأ الاستاذ ده روجيه بالقاء محاضرات أثرية في كلية فرنسا عن حجر بيعنخي واستمر في ذلك حتى عام ١٨٧٢ . وفي عام ١٨٦٩ نشر لوت ترجمة المانية لنقوش الاثر وفي سنة ١٨٧٣ نشر كوك ترجمة انكليزية لنفس الاثر. وفي سنة ١٨٧٦ نشر ابن الاستاذ ده روجيه الذي برع أيضاً في علم الآثار المصرية مثل أبيه ترجمة الآثار التي عملها والده مع ملاحظات من محاضرات والده القاها في الموضوع من سنة ١٨٦٧ الى سنة ١٨٧٢ . وترجم الاثر بعد ذلك كل من بروكش باشا وفيدمان وجريفث وبرستد وغيرهم من علماء الآثار

اما الصور والرسوم التي عملها ديفيرا عام ١٨٦٥ ونشرها ماريت عام ١٨٦٧ فطبعها الاستاذ جاستون ماسبرو ثانية وعرضها للبيع عام ١٨٨٩ مع ملاحظات اثرية مهمة وقد اعتنى الاستاذ شيفر الالماني فجمع كل معلومات ذلك الحجر الاثري وشرحه وترجم نقوشه ثانية وطبعه باتقان وترتيب استحق عليهما الثناء الجزيل من جميع علماء الآثار

يتضح من ذلك أهمية حجر بيعنخي الذي وجد مع احجار اثرية أخرى جهة جبل برقل قرب نبته بجوار الشلال الرابع بالسودان . ويعد هذا الحجر من اهم الآثار التي وصلت الينا الى الآن لانه ملآن بالاخبار الرسمية التاريخية عن عصر تكاد تكون معلوماتنا عنه معدومة بالمرة . ومما زاد في اهمية ذلك الاثر ما ورد في نصوصه من وصف حالة مصر التي لا يكاد يصدقها العقل لولا ورودها بهذه الصيغة المؤكدة فقد ورد ان القطر المصري في سنة ٧٢٠ ق . م كان

منقسماً الى عدة امارات صغيرة لكل منها حاكم . وكان هؤلاء الحكام يتنازعون للحصول على عرش مصر . ولم يكن للقطر المصري عاصمة ولا حكومة مركزية فصارت اقاليم مصر تتجاذب النفوذ والسلطة بعضها من بعض

ويرجع تاريخ هذه الفوضى الى سقوط العائلة الحادية والعشرين أي منذ عام ٩٤٥ ق . م تلك العائلة التي كان ملوكها منقسمون الى قسمين قسم للوجه البحري والآخر للوجه القبلي . أما ملوك العائلة الثانية والعشرين فكانوا ليبيين لكنهم حكموا القطرين تحت سلطة واحدة الا انهم لم يكونوا قابضين على زمام الحكم برهبة وشدة

اما السودانيون فلما علموا ان مستعمرات مصر الاسيوية انسلخت عنها في عهد الاسرة الثانية والعشرين امتنعوا هم ايضاً عن دفع الجزية للقطر المصري منتظرين ظهور ملك ينقذ هذا القطر من حالته المحزنة . وفي ذلك الحين بدأ السودانيون ينظمون شؤونهم بأمان واطمئنان غير خائفين من القطر المصري ولا وجلين

كيف غزا السودانيون مصر

كانت مصر سنة ٧٢٠ قبل الميلاد منقسمة الى عشرين ولاية صغيرة على كل ولاية أمير من الامراء العشرين وكان بعضهم لبعض عدواً لذلك كان كل امير منهم يحصن ولايته بالقلاع والسلاح والرجال حتى ملأوا أرض مصر حصوناً وقلاعاً على شواطىء النيل والجزر والترع والآكام . وظهر بين حكام الوجه البحري حاكم يقال له تفنخت رام التغلب على مصر فقاتل الامراء المجاورين له وانتصر عليهم تباعاً ثم كثر رجاله واشتدت وطأته فقاتل بقية الامراء ولكن بالرغم من شدة بأسهم وقوة حصونهم ومنعتها هزمهم واستولى على قسم صالحجر وقسم اتريب وقسم منف وتوجه بعد ذلك الى الصعيد فدان له بعض امرائه عن رضى

وترغيب والبعض الآخر قهراً وارهاباً فاستولى عليه وفرض الضرائب على اهله وكانت تلك الجهات تحت حكم الاتيوبيين

فلما بلغ ذلك الملك بيعنخي السوداني تميز موجدة وحنقاً وصمم على محاربة تفنخت فظفر به . ولقد دونت اخبار هذه الحرب الطاحنة على أثر بيعنخي الذي عثر عليه الضابط المصري المجهول في السودان واهتم علماء الآثار بترجمتها أيما اهتمام. ولماوكانت تلك النقوش من الاهمية بمكان رأيت ان أوجز في ذكرماحوته مأخوذاً عن المرحوم احمد كمال باشا الاثري الشهير.

يبدأ الاثر بالعبارة الآتية « في غرة شهر توت سنة احدى وعشرين من حكم بيعنخي . قال جلالته بلغني ان تفنخت تغلب على مدينة منف واستولى على الصعيد فاطاعه الامراء واعيان البلاد ولم يغلق دونه حصن واعترفو له بالسيادة في اقسامهم فأباح لهم الحكم على البلاد كما كانوا فعظموه بما يستحقه ذكاء عقله فانشرح فؤاده قال بيعنخي وكانت تأتيني الرسل كل يوم من الامراء وقواد الجيوش سائلة عن سبب سكوتي وعدم مدافعتي عن بلاد الوجه القبلي واقسامها ومخبرة لي بما فعل تفنخت . فامرت قوادي وضباط عسكري الذين كانوا في مصر ان استعدوا لقتاله وسلب مواشيه وسفنه التي في النيل وامددتهم بجنود ونصحت لهم بعدة نصائح قبل توجههم الى القتال فقلت لهم

« لا تهاجموا في اثناء الليل هجوم المتلاعبين بل اهجموا متى رأيتم ان العدو أعد جيوشه وخيوله للمسير اليكم وإذا قامت الحرب فاعلموا ان آمون هو الذي ارسلنا اليهم . فإذا وصلتم مدينة طيبة فاغتسلوا في مياه معابد آمون واسجدوا له وقولوا ثبت افئدتنا على الحق لنحارب في ظل سيفك »

ففعلوا كل ما اوصاهم به ملكهم ثم زحفوا منحدرين في النيل فقابلتهم سفن حربية مسلحة فحاربوها وساروا شمالاً . ولما رأى حكام مصر ما كان قرروا ان يتبعوا تفنخت الحاكم العام على الوجه القبلي والبحري ويحاربوا بيعنخي الا انهم

هزموا واخذت سفنهم وهرب الباقون منهم . وفي اليوم الثاني اجتاز جيش بيعنخي النيل مقتفياً اثرهم فادركهم وقتل منهم عدداً كبيراً وهرب الى الوجه البحري

وارسل قواد الجيش السوداني الى ملكهم بيعنخي كتاباً فيه اسماء من قتلوهم من الاعداء فاستشاط غيظاً وتلون كالنمر وامرهم بان لايتركوا جندياً من جيوش مصر الا قتلوه . فوالى رجاله الزحف وفتح المدن في الصعيد ومع ذلك لم يسكن غضب بيعنخي . بل صمم جلالته على الذهاب الى مصر لقيادة جيوشه بها فلما وصل ارمنت سلمت اليه بعد قتال شديد وأتى حاكم ارمنت الى بيعنخي متواضعاً امامه وقائلا : لقد جعلتني سطوتك في هذه الحال.واحضر اليه الهدايا والخيل الجيدة ثم جاء ملك اهناس بهدايا من ذهب وفضة واحجار نفيسة وجياد من خيول اسطبله وسجد امامه متواضعاً

وتوجه بيعنخي شمالاً فاتحاً المدن والقرى حتى بلغ منف فارسل الى سكانها يقول : لاتقفلوا ابوابكم ولا تحاربوا ايها الناس القاطنون في المدينة لاني سأدخل واخرج من غير اساءة اليكم . لكنهم لم يسمعوا قوله وصمموا على مقاومته فاخرجوا عساكرهم لقتاله . وكانت منف اذ ذاك محاطة بمياه فيضان النيل فجمع بيعنخي اسطوله حولها والف مجلساً حربياً من قواده وقر رأيه على مهاجمة منف وافتتاحها عنوة . ففعلت جيوشه ذلك بسرعة الريح العاصف ودخل بيعنخي منف وزار معبد بتاح هناك وقدم له القرابين من ثيران وعجول واوز وغيره . ثم دخل قصرها الملكي . وفتحت البلاد المجاورة لمنف ابوابها لبيعنخي واتت جميع رؤساء الوجه البحري بجزيتهم مظهرين له الولاء والطاعة

ثم توجه بيعنخي بعد ذلك الى معبد مدينة عين شمس حيث ادى الصلاة وسار الى جهة بنها فاتاه امراء تلك الجهة بالجزية النفيسة وكانوا اربعة عشر اميراً

وارسل تفنخت رئيس المصريين بعد ذلك الى بيعنخي رسولاً يقول له اكظم غيظك فاني وجل من رؤيتك لعدم مقاومتي نار حربك وامتلأ قلبي

بفزعك . فاسألك العفو عني . واعلم انك ان بذرت بذوراً حصدت محصولها في ابان حصادها

فرضي بيعنخي بذلك واستلم من تفنخت الهدايا الفضية والذهبية وحلف تفنخت بعد ذلك يميناً مقدسة بان لا يخالف اوامر بيعنخي ولا يتعدى اقواله ولا يسيء رئيساً من غير رضاه وان ينتهي بنهيه ويأتمر بامره

وانتهي الاثر بهذه العبارة : وكان بيعنخي كلما حل بجهة رفع اهلها اصواتهم بالفرح قائلين ايها الملك المنصور لقد اتيت وحكمت الوجه البحري وحل الفرح في قلب امك التي ولدتك فصرت شهماً .واعطاك آمون جوهرة فبشرى لك اينها البقرة التي ولدت ثوراً كان على ممر الدهور ذكراً مخلداً وملكا مؤيداً الاوهو الملك المحب طيبة »

تفرق الكلمة ونتائجها

نشأت المملكة السودانية بنفوذ كهنة آمون في طيبة وكان لسلطتهم تأثير عظيم في العرش السوداني حتى تمكنو بها من انزال الملوك عن عروشهم اكراهاً وقسراً . وغني عن البيان أن نظام السودان كان نتيجة مجهودات مصرية زمناً طويلاً ولقد اخطأ اليونان حيث قالوا ان السودان أصل رقي مصر ومنشأ مدنيتها وهذا الخطأ نتيجة انحطاط مصر وتقدم السودان ذلك التغيير الذي جعل تلك الفكرة تتسرب الى أذهان العامة فضلاً عن الخاصة

ورجح الأثريون وجود اسم مصري للملك بيعنخي بدلاً من اسمه النوبي لا يزال مجهولاً حتى الآن لان حالة ذلك الملك وتربيته وانظمته كلها مصرية الصبغة . فما اكثر ما شيده من المعابد في القطر المصري المحلاة بالرسوم والنقوش المصرية كما انه ورد على جدران تلك المعابد نقوش تشبه كل الشبه نقوش جدران طيبة . ومن ثم قال الاثريون ان المملكة السودانية مصرية الاصل كما ان صبغتها الطيبية مصرية أيضاً بلا جدال ولا نزاع

وقد سبق لنا ان المعنا الى اعمال الملك بيعنخي وفتوحاته بالقطر المصري ونذكر القارىء الآن انه بعد ما مكث ذلك الملك بمصر زمناً يسيراً آب الى نبتة عاصمة السودان وولى تفنخت المصري نائباً عنه على مصر. وبمجرد وصول القوات السودانية نبتة قام تفنخت وشق عصا الطاعة عليها وأسس مملكة مستقلة في الوجه البحري ثم انتحل لنفسه الالقاب الفرعونية واستمر كذلك ثماني سنوات قضاها في نزاع وحروب مع حكام اقاليم القطر المصري قاصداً إخضاعهم والتغلب عليهم. فكانت حالة القطر وقتئذ أشبه بها في زمن العائلة الثانية والعشرين وكان لتفنخت هذا مميزات كثيرة على حكام الوجه البحري من حيث الصبر والاقدام وهذه المميزات مكنته من توطيد مركزه في جهة صا الحجر. فلما توفى ورث الملك عنه ابنه بوكوريس مؤسس العائلة الرابعة والعشرين. اما بيعنخي فبقي حاكماً على الوجه القبلي زمناً قليلاً شيد في أثنائه معبداً في طيبة للمعبودة (موت) وآثاراً يسيرة. وكانت حدود منطقة النفوذ السوداني واصلة الى أهناس وكان حاكمها قائداً للاسطول النوبي أيضاً. ثم اراد بيعنخي ان يحتفظ لعائلته بسلطة امون ووراثة عرش مصر فوهب زوجته المسماة (امنارذيس) الى (شعب نوبت) الاميرة الكاهنة بطيبة بنت الملك اوسوركون الثالث. ولم تكن هذه الحيلة بدعة من نوعها بل تعدد حصولها في تاريخ مصر. لكن ذلك المشروع وقف لان اوسوركون الثالث اغتصب بدهائه الوجه القبلي وانفرد بالحكم في طيبة وكان ذلك سنة ٧٠٧ قبل الميلاد فصار القطر المصري في ذلك الحين محكوماً بعدة ملوك مستقلين بعضهم عن بعض تمام الاستقلال.

وردت حكاية غريبة في قرطاس بردى يرجع تاريخه الى السنة الرابعة والثلاثين من حكم الامبراطور الروماني اوغسطوس ذكر فيها ان كبشاً نطق في السنة السادسة من حكم الملك بوكوريس بن تفنخت المذكور سابقاً قائلاً ان مصر ستبقى تعسة تعبة تسعمائة سنة. وكان القطر المصري في ذلك الزمان مهدداً

بالغزو الاشوري . فكان لهذه الحادثة أعظم وقع وتأثير في النفوس أيام الملك بوكوريس كما قال مانيتو. ويعد هذا التنبؤ الاخير من نوعه في تاريخ قدماء المصريين

وباضمحلال القوة المركزية الحكومية في القطر المصري انحطت الحضارة والرفاهية فيه تدريجاً واخذت التجارة الاجنبية تكسد حتى كادت تنعدم . أما الزراعة والصناعة فانحطتا الى أحط الدركات وصارت مالية القطر بايدي أناس لا يعرفون للتبعة نتيجة ولا للواجب معنى فبدأت الترع والجسور تتلف وضربت الفوضى اطنابها في المدن والقرى وتبددت ثروة البلاد وليس لدينا معلومات تاريخية عن تلك العصور تثبت ما حصل فيها وانما يمكننا ان نستنتج ذلك من تواريخ العصور التالية . فقد جاء في التوراة ما معناه « ان ملوك تانيس صاروا لا عقول لهم وملوك منف ضلوا واضلوا قومهم فقضينا ان نعطي مصر لرجل جبار يتولى امرها ويدير شأنها » ففسر الاحبار الملك الجبار بالملك شاباكا السوداني

وكانت المملكة الاشورية في ذلك الحين يانعة فتية تتأهب في صباها لغزو البلاد والممالك وخصوصاً سورية وفلسطين . وصار المصريون مهددين بخطر تلك المملكة الاجنبية لضعفهم وانقسام كلمتهم . فحرضوا الولايات الاسيوية على العصيان ضد آشور ليمنعوا بذلك دخولها ديار مصر . ولكن ذلك المشروع فشل فلم يجد المصريون بداً من الالتجاء الى سياسة اللين فارسلوا الهدايا الثمينة الى ملك آشور رجاء احلال الصداقة محل النزاع فتمتنع آشور عن التدخل في شؤون مصر

وفي سنة ٧١١ ق . م . اكتسحت الجيوش النوبية الوجه القبلي ووصلت الى الوجه البحري بقيادة ملكها المسمى (شاباكا) اخي بعنخي وزوج ابنته أيضاً . فوقع بوكوريس أسيراً في يد شاباكا الذي دفنه حياً كما روى مانيتو . ثم اعتلى شاباكا عرش مصر فأسس العائلة الخامسة والعشرون الاتيوبية . واتضح لشاباكا خطر آشوز المحدق بمصر فاشعل نار الفوضى والاضطراب في فلسطين وسورية واعداً ولاة الاشوريين هناك بكل مساعدة وعطف اذا أطاعوا أوامره . فاغتر

هؤلاء القوم بكلام شاباكا وظنوا ان مجد مصر القديم وعظم شأوها وقدرتها على سحق اعدائها لا تزال عوامل قوية يمكن الاعتماد عليها فانصاعوا لشاباكا وهذا حسب انصياعهم خضوعاً وانقياداً لاوامره فادعى على جدران الكرنك أخذ الجزية من بلاد الشام كشاهير ملوك مصر . ثم شاع الخبر وبلغ مسامع الآشوريين فقام ملكهم واسر هوشع ملك اليهود وحاصر بلدة سمرية الا انه مات هناك . فولى الاشوريون سرجون قائد جيوشهم ملكا عليهم فقادهم وفتح سمرية . ثم اشتبكت الجنود المصرية والاشورية في حرب عوان انهزم فيها المصريون وفر شاباكا في القفار ضالا الطريق فارشده راع من فلسطين الى أرض مصر . وهكذا حبطت مساعي شاباكا وهاج الوجه البحري عليه وعلى السودانيين وطردهم الى طيبة حيث مات شاباكا بعد ذلك بقليل تاركا حكم اتيوبيا والوجه القبلي الى ابنه شاباتاكا . وهذا جيش الجيوش وهاجم المصريين لما رأى من تفرق كلمتهم فتغلب عليهم وحكم مصر كلها على انه لم يتمتع بالملك الا قليلا حتى تغلب عليه طهراقه وقتله وحل محله

حشرجة الموت

ولما تولى طهراقة بن بيعنخي عرش مصر سنة ٦٨٨ قبل الميلاد دعا أمه من نبته الى مصر لتتمتع بحقها في الملك بكونها والدة جلالته . وكانت مدينة تانيس مركز الاتيوبيين بمصر في تلك العصور . وحكم طهراقة ثلاث عشرة سنة لم تقع فيها اضطرابات ولا منازعات مع البلاد الاسيوية شيد في اثنائها الصروح والقصور في جهة تانيس ومنف وطيبة . ولما أيقن ان الحرب مع آشور لابد منها وانها تدنو منه أعد لها عدته . فلما كانت سنة ٦٨١ ق . م تولى على آشور ملك يقال له (آشور أخي الدين) فرأى هذا ان النفوذ المصري في فلسطين وسورية يتعاظم شأنه ويدس الدسائس له فصمم على غزو وادي النيل وابادة سلطة الفراعنة ليستتب الامن وتسكن القلاقل . ففي سنة ٦٧٤ ق . م وصلت الجيوش الاشورية

الى شرق الدلتا فاشتبكت والجيوش المصرية بقيادة طهراقة الملك السوداني في حرب عوان وكانت ثم معركة تلظى سعيرها وانتهت بفوز المصريين وانسحاب الاشوريين . وفي سنة ٦٧٠ أعاد (آشور اخي الدين) الكرة على مصر فهزم جيوشها ومزقها كل ممزق وزحفت جيوشه على مدن القطر المصري واحتلت منف وهرب طهراقة الى الوجه القبلي . ولما رجع آشور أخي الدين نقش على صخور نهر الكلب بجوار اثر رمسيس الثاني كل ما عمله في مصر وفلسطين وبين للملأ انتصاراته العظيمة وصور نفسه في شكل رجل عظيم يقود اسيرين يظهر من شكل احدهما انه احد ملوك الشام ومن الآخر انه طهراقة لما يبدو عليه من ملامح الزنوج

وهكذا حكمت مملكة آشور مصر بعد ان حكمها اللوبيون فالسودانيون ولا يخفى ان هذين الاخيرين كانا شديدي الشبه بالمصريين يحافظون على دياناتهم وعاداتهم واخلاقهم ويتطبعون بطباعهم ويتقلدون بملوكهم . اما الاشوريون فقوم اجانب من بلاد اسيوية سحيقة لا شفقة فيهم على مصر ولا رأفة . لذلك اتفق حكام الوجه البحري خلسة مع طهراقة على ملك آشور فتولى اشوربانبال بن اشور اخي الدين قيادة الجيوش الاشورية وحارب طهراقة شرق الدلتا فهزمه وشتت شمله واحتل منف وسار جنوباً اربعين يوماً حتى وصل الى طيبة مقتفياً أثر طهراقة ومصمماً على طرده من مصر . ولم يثبت للآن هل خضعت طيبة للاشوريين في ذلك الوقت خضوعاً تاماً ام لم تخضع وانما الثابت ان طهراقة اتخذ لنفسه خط دفاع شمال نوبيا ولكن الاشوريين لم يزحفوا عليه هناك بل اكتفوا بما احرزوه من الفوز في مصر . وعاد اشور بانبال بعد ذلك الى بلاده الا ان حكام اقاليم مصر سرعان ما خاطبوا طهراقة سراً ليأتي ثانية الى مصر وينقذ القطر المصري من أيدي هؤلاء الطغاة الظلام فقامت هذه الفتنة في مدن تانيس وصا الحجر وصفط الحنة . فلما اتضح امرهم قبض الاشوريون على حكام تلك الاقاليم وارسلوهم الى اشور مكبلين بالحديد وهكذا منع طهراقة من الرجوع الى مصر

ومضت سنون قليلة على هذه الحالة كان الوجه القبلي في اثنائها خاضعاً لطهراقة والوجه البحري لاشور ثم ولى طهراقة ابنه تانوت آمون حاكماً على الوجه القبلي وجعل مقامه في طيبة وذلك سنة ٦٦٣ق.م وبقي طهراقة في نبته . وفي ذلك الحين حلم تانوت آمون انه سيصير يوماً ما حاكماً على القطر المصري كله فجيش الجيوش وحارب الوجه البحري وقهر حكام اقاليمه وأخضعهم لسلطته . وفي سنة ٦٦١ق.م. ظهرت الجيوش الاشورية في ارض مصر وحاربت طيبة وسلبتها عزها ومجدها وهدمت معابدها وتركتها قاعاً صفصفاً . فدوى خبر سقوط تلك المدينة العظيمة في الآفاق واصبحت مضرباً للامثال ثم بدأت طيبة تضمحل حتى صارت تلالاً خربة تحوي اعظم آثار العالم صلابة ومتانة

وكان تقهقر تانوت آمون السوداني الى نبته آخر عهد الاتيوبيين في القطر المصري وتعد حياة هذا الملك مثالا لضعف السودانيين الذين رماهم اوسرتسن الثالث من العائلة الثانية عشرة بالضعف والمسكنة والجبن الى غير ذلك من الصفات الذميمة

فالباحث في تاريخ المملكة السودانية يرى انها ارتفعت واستقلت ثم ضمت اليها القطر المصري وطمحت لتدخل في شؤون الدول الاجنبية فارادت استعمار آسيا . وظهرت في ذلك الحين المملكة الاشورية القوية فاكتسحت المملكة السودانية اكتساحاً وصدمتها صدمة كانت القاضية على كيانها وهيبتها . قال المؤرخون ان كل مشروع قام به ملوك السودان للدفاع عن وادي النيل ضد اشور حبط حبوطاً تاماً لضعف السودانيين وجهلهم بالسياسة . ويستثنى من ذلك دفاع طهراقة لانه تمكن من صد أشور مرة على حدود مصر وحفظ كيان مملكته زمناً يسيراً الا انه اضطر في آخر الامر ان يولي ظهره جيش اشور جبناً وضعفاً وقصارى القول ان مقاومة السودانيين للاشوريين بمصر كانت ضعيفة ضعفاً يصعب ان يقاس بسلطة الفراعنة الاقدمين الذين كانوا مثال الشجاعة والشرف وحب الوطن

ولما تقهقر الاتيوبيون الى نبته لم يبدوا اقل ميل نحو غزو القطر المصري ثانية ثم أخذ عدد المصريين في السودان يقل حتى انعدمت المسحة المصرية في السودان ودخل ذلك القطر في حالته الوحشية واخذ النفوذ الديني يقوى والنفوذ الملكي يضعف حتى أصبح ملك السودان اسمياً لا فعلياً . وكان يتحتم عليه اطاعة كهنة آمون اطاعة عمياء وكانت تضطره احياناً الى اعتزال مركزه أو الانتحار كما يتراءى الكهنة . ثم اضطرت الحكومة السودانية الى الانتقال من مدينة نبته الى اواسط السودان متأثرة بغزوات بسامتيك الثاني في اوائل القرن السادس قبل الميلاد . ثم أخذت المملكة السودانية تكبر متجهة جنوباً بدلا من الشمال فانضم اليها اقليم النيل الازرق الخصب التربة واصبحت نبته منعزلة عن اراضي السودان العامرة تفصلها عنها شلالات النيل العديدة . وفي سنة ٥٦٠ ق . م انتقلت الحكومة السودانية من نبته إلى مروة في منتصف المسافة بين نهر اتبرة والنيل الازرق

ولقد كان لانتقال عاصمة السودان من نبته الى مروة مزية عظيمة لذلك القطر لان العاصمة اصبحت الآن محروسة شمالاً بعقبات طبيعية وهي شلالات النيل العديدة . ومما يثبت صحة ذلك انه لما غزا قمبيز السودان سنة ٥٢٥ ق . م . ايام الملك نستاسن السوداني حالت الشلالات وصعوبة المواصلات دون وصوله الى مروة . فاضطر الى الرجوع الى مصر وعدم التوغل في الاقطار السودانية . وعندي ان قطع صلة السودان بمصر وعزلته منع اتصاله بالعالم المتمدن فاخذ يقترب من الوحشية والجهالة وقل استعمال اللغة المصرية القديمة والخط الهيروغليفي اللذين كانا يستعملان أيام زهوة تلك المملكة وعظمتها حتى تلاشى فأبدلت الكتابة الهيروغليفية بخط مروي لا يزال مجهولاً الى الآن

واخذت عرى السودان تنفكك بعد حكم الرومان فسقط فريسة للغير واضيف الجانب العلوي منه الى مصر واستقل جانبه الجنوبي الشرقي وتكونت منه مملكة مسيحية معروفة باسم الحبشة في القرن الرابع بعد الميلاد

نهضة مصر بعد خمولها

لما غزوا تانوت آمون الملك السوداني القطر المصري قتل عدداً كبيراً من حكام الوجه البحري ومنهم حاكم يقال له نكاوو . وكان لهذا الحاكم ابن يقال له بسامتيك فر الى بلاد آسيا ملتجئاً الى آشور . فلما غزا آشور بانبال القطر المصري وطرد الاتيوبيين منه ولى بسامتيك هذا حاكماً على قسمي صا الحجر ومنف . وكانت مصر في ذلك الحين تحت سلطة آشور المطلقة فهجر اليها الاجانب واقتسمو ثروتها

وكان الوجه البحري خاضعاً لحكام اقاليمه منذ الاسرة الحادية والعشرون أما الوجه القبلي فكان كثير التقلب فتارة كان تحت سلطة اتيوبيا وتارة مستقلا . وكان يحكمه في العصر الذي نحن بصدده ملك يقال له منت — أم — حت وهكذا اصبح مستقبل القطر المصري مظلماً مكفهراً ليس فيه بارقة أمل لاستقلال البلاد والاستعاضة من شرفها المفقود وعزها المسلوب .

واخذت سلطة بسامتيك تمتد على توالي الايام الى جميع موارد البلاد المصرية ولا غرابة في ذلك فهو سليل تفنخت القوي الشوكة العظيم البأس حاكم قسم صا الحجر أيام الملك بيعنخي . وقد امتاز هذا البيت بافراده العديدين الذين جمعوا بين محاسن الاعمال والاقدام والشجاعة مما عاد عليه بالفخر والثناء . فجعل بسامتيك همه التخلص من آشور وكان عالماً ان آشور بانبال ملك آشور لم يكن له بد من ان يقاتل اخاه ملك بابل لاسباب سياسية

فلما نشبت الحرب بينهما عام ٦٥٢ ق . م . انجدت بلاد العرب بلاد بابل فاضطرت اشور ان ترسل جيشاً الى بلاد العرب لتنتقم منها عملها العدائي . وشق سكان آسيا الصغرى الشمالية عصا الطاعة على اشور فاضطرت هذه ان ترسل جيشاً آخر لاخضاع هذه البلاد أيضاً . واستمرت اشور منهمكة في الحروب مع

أعدائها لاخضاعهم اثنتي عشرة سنة حتى عام ٦٤٠ قبل الميلاد اذ استتب الامن وخيم السلام . وفي هذا الحين ايقن اشور بانبال ان بسامتيك صار منيع الجانب ذا عزة وسلطان سياسياً وحربياً فلم يتدخل في شؤون مصر وترك بسامتيك يفعل ما يشاء

وقد وردت عن اليونان قصص تاريخية كثيرة بعضها خرافي والبعض الآخر فيه شيء من الحقيقة . فمن الضرب الثاني ما رواه هيرودوت المؤرخ اليوناني الشهير عن تبوء بسامتيك عرش مصر حيث قال ما معناه : —

كان اصعب شيء على الامة المصرية الانقياد الى الاجانب فتعصب أعيان المدائن وتعاهدوا على نزع ملكهم من يد الاتيوبيين فثاروا عليهم وطردوهم من الوجه البحري واقتسموا الملك وكانوا اثني عشر حاكماً من اعيان البلاد المتعاهدين كلا منهم يحكم اقليما فسميت حكومتهم بالمقاسمة الاثني عشرية . وكانت عبارة عن جمهورية النزامية وكان بسامتيك من هؤلاء الامراء المتعاهدين . فاستعان عليهم بعساكر يونانية متطوعة فانتصر عليهم واستبد بالحكم وصارت مملكة واحدة . ويقال ان السبب في أعانة العساكر اليونانية المتطوعة له هو ان كاهناً اخبر هؤلاء الملوك المتعاهدين الذين عبرنا عنهم بالاعيان ان احدهم لابد ان يشرب الشراب ذات يوم اثناء التقرب الى المعبود بتاح في قدح حديدي وبهذا يصير ملكاً على الاقاليم المصرية وكانوا يشربون شرابهم في اقداح من الذهب. فبينما كان هؤلاء الملوك الاثنا عشر مجتمعين يتنادمون على الشراب تقرباً الى تمثال بتاح لم تكن اقداح الذهب الموضوعة بينهم الا احد عشر قدحاً لسهو وقع من الكاهن المكلف بتقديم الاقداح اليهم فبقي احدهم فهو بسامتيك من غير قدح فنزع مغفره عن رأسه وكان من حديد وشرب فيه الشراب فتذكر رفقاؤه قول الكاهن وتنبهوا لذلك فاكرهوه على ان يهاجر الى آجام الوجه البحري خيفة ان يستبد بالملك دونهم ففعل . وبعد وصوله اليها دعا كاهناً من الكهان وسأله

عما سيقع له فاخبره بانه لا بد ان يستبد وحده بملك مصر وان ينصره على اقرانه رجال من حديد يقدمون اليه من جهة البحر الابيض . واتفق ان رست سفن في تلك الجهة فيها رجال اشداء من ملاحي اليونان متسلحون باسلحة من حديد فخرجوا في البر على مقربة من منازل بسامتيك لينهبوا البلاد . ولكن لما تذكر بسامتيك خبر الكاهن قال انه قد يتحقق بذلك فبادر الى الملاحين النازلين واكرم وفادتهم ووعدهم بالانعام وتحالف معهم على أن ينصروه فدخلوا في خدمته واستعان بهم في شن الغارة على اقرانه وانضم اليهم حزبه المصري فتلاقى جنده بجنود اعدائه فظفر بهم وانزل أولئك الملوك عن عروشهم واستبد هو بالملك وحده وكان ذلك مبدأ العائلة الصاوية السادسة والعشرين

قال الاثريون ان أولئك الملاحين الذين انزلوا بارض مصر ايام بسامتيك اتوها من بلاد آسيا الصغرى لاعانة مصر على آشوز . وقد ثبت وجود مثل هذه المساعدة في الآثار الاشورية ولا يبعد ان يكون لبسامتيك يد محركة في تلك الجهات . ومن المؤكد انه اغتنم الفرصة واستثمر الصدف فتمكن بذلك من توطيد عرشه ومركزه في مصر حتى جعله من المتانة بمكان

وامتاز بسامتيك على غيره من الملوك بسرعة أعماله في تشييد ملكه في القطر المصري . ففي سنة ٦٥٤ قبل الميلاد لما كانت جيوش آشور زاحفة على بابل لاخضاعها استولى بسامتيك على طيبة بسهولة لان شوكة هذه المدينة وزهوها كادتا تذهبان في حكم الاتيوبيين فلم يجد بسامتيك مقاومة تذكر في بسط نفوذه عليها

ثم اراد بسامتيك ان يتسلم مقاليد عبادة آمون فوهب ابنته نيتوقريس الى الاميرة الكاهنة شب — نو — بنت اخت طهراقة المتوفي وسجل ذلك على اثر يعد اكبر الآثار المنقوشة في عهد بسامتيك المذكور . وقد وردت في هذا الاثر ان املاك الاميرة شب نوبت وامتعتها اعطيت لبوقريس . فانهار بذلك صرح

آمون حيث اعطيت رئاسة معبده لامرأة الامر الذي لم يشهده التاريخ قبل ذلك الزمان

فتغلب يسامتيك على حكام اقاليم مصر ثم جمع السلطة التشريعية والتنفيذية في يده وهكذا انتفى الظلم والحيف وحب النفس والمنافسة والمطاحنة بين الحكام العديدين . ولقد صار لبسامتيك بهذا الفوز والظفر مقام عظيم في التاريخ ساواه بالفراعنة العظام الاقدمين . قال الاثريون ان المصاعب والمشاكل التي اعترضت لبسامتيك كانت عظيمة ومعقدة وعنيفة فلما ذللها ارتفع مقامه حتى فاق في الشهرة امنمحمت الاول مؤسس العائلة الثانية عشرة واحمس الاول منقذ مصر وطارد الهيكسوس

غزوة قمبيز وحبوطها

لما تولى بسامتيك الثاني عرش مصر سنة ٥٩٣ قبل الميلاد ادرك ان التوسع في آسيا امر مستحيل فاقتنع بتطبيق المعاهدة التي ابرمها ابوه مع بابل . وظلت الحالة على ما كانت عليه في البلاد الاسيوية اما في جنوب مصر فطمع بغزو السودان وضمه منذ ظهور المملكة السودانية فيه واستقلالها عن سلطة الفراعنة . فأرسل بسامتيك جيوشاً الى نوبيا فوصلت الى جهة الشلال الثاني حيث تركت نقوشاً يونانية على احد تماثيل رمسيس الثاني في معبد ابي سمبل استدل منها على ان بسامتيك غزا السودان وانتصر عليها . وقد المعنا قبلا الى ان هذه الغزوة كانت من الاسباب التي حملت السودانيين على نقل عاصمتهم من نبتة الى مروة جنوباً ومهما يكن من الامر فغزوة بسامتيك لم تأت بنتيجة حاسمة فسرعان ما انفصل ذلك الاقليم السوداني الذي اراد بسامتيك ان يضمه الى مصر . ثم قطع السودان علاقاته مع مصر وحافظ على استقلاله وأصبحت ولايته التي بين الشلال الاول والثاني والشهيرة قديماً بكثرة عدد سكانها وعمرانها خربة مدمرة أشبه شيء بالصحاري والقفار . وهكذا آلت مدينته التي شيدها ملوك العائلة الثانية عشرة والتاسعة عشرة الى اطلال وأوشكت هيا كلها ان تعلوها الرمال . اما الجهة

التي بعد الشلال الثاني فكانت آخذة في الظهور والارتقاء وكانت منقسمة الى قسمين كمصر . القسم الشمالي كان يشتمل على مدينتي دنقلة ونبته والقسم الجنوبي على مدينة تكاسي عند الخرطوم

ثم بدأت مطامع ملوك نوبيا تمتد جنوباً لسببين أولاً لانه لم تكن هناك صعوبات تمنعهم وثانياً لكثرة غنائمها . حتى قيل ان اثنين من ملوك اتيوبيا المعاصرين لقمبيز وهما نستاسن وحروساتف اخضعا اكثر هذه الجهات وقمعا عصيان كل من اظهر المقاومة والثبات

قال المرحوم كمال باشا وكانت بلاد اتيوبيا مملكة شورى فاذا ارادوا انتخاب ملك كانو يعقدون في معبد آمون بمدينة نبته مجلساً يجتمع فيه الكهان والنواب الذين ينتخبهم القضاة وبعض العلماء والعساكر والضباط . فاذا اجتمع المجلس دخل الاخوة الذين هم من العائلة الملكية الى معبد آمون ووقفوا امام هذا المعبود المشير باصبعه اشارة اتفاق الى الانسان الذي تريد الكهنة انتخابه من العائلة الملكية لتولية الملك ومتى تم الانتخاب واستقر الرأي على واحد جعلوه ملكاً عليهم وظل طول حياته تحت سلطة الكهنة فليس له ان يشهر حرباً أو يجري شيئاً مهماً في الحكومة الا اذا استأذن المعبود آمون وكهانه . فان عصا أو اراد الاستبداد قرر الكهنة قتله فلم يكن بد من تنفيذ هذا الحكم فيه . وكما كان هذا القانون مشدداً على الملك كان ايضاً مشدداً على الرعية فاذا خالف احد الرعية رأي الكهنة او غيز اقل شيء في الشعائر الدينية عدوا عمله بدعة سيئة وحكموا عليه بالقتل . وقد اتفق في آخر القرن السابع ان بعض الكهنة اتى بدعة سيئة في شعائر الدين المصري القديم منها اباحة اكل لحم القربان نيئاً وهي عادة بني الاسود فتوجه الملك الحاكم الى معبد آمون بنبته وحكم بطرد من ابتدع شيئاً في الديانة وحرق ما وجده من آثار تلك البدع السيئة . فعلى هذا الامر خروج اصحاب هذا المذهب الجديد من بلادهم الى جهات بعيدة واتخذوا لهم فيها مساكن وتمكنوا من هذا تمكناً

قوياً لان رؤساء الديانة المصرية كانوا في ذلك الحين في ضعف كبير فلم يتمكنوا من ردعهم . لذلك استمروا ناهجين هذا النهج حتى ظهر سيدنا عيسي عليه السلام وبقيت هذه العادة الى الآن متأصلة في بعض الحبشان فهم يأكلون اللحم النيء ويسمونه برنيدة

ولما انقطعت العلاقات بين السودان ومصر واستبد السودان باعماله ظهرت فيه الثروة والغني وبعد صيته وشهرته بين الامم المتمدينة فامتدت مطامع قمبيز إلى فتحه فارسل اليه سفراء من وادي الكنوز يحسنون لغة السودانين وكان رجاله حسان الخلقة طوال القامة غلاظاً شداداً اذكياء معروفين بعلوا الهمة والشجاعة

قال هيردوت : وكان في اتيوبيا عين ماء تنعش حياة اهلها ومروج مخضرة يانعة فيها ما تشتهي الانفس وتلذ الاعين . وكان الذهب في بلادهم كثيراً جداً حتى انهم كانوا يستعملونه في الاشياء الدنيئة كالسلاسل التي يسحبون بها الاسرى . وكان النحاس نادراً ومرغوباً فيه فكانت سفراء قمبيز عليهم عيوناً وجواسيس يرودون البلاد ويستكشفون احوالها فعرفت أهل النوبيا منهم ذلك ولكنهم رحبوا بهم وعاملوهم أحسن معاملة ولم يحترسوا منهم . وكان مع هؤلاء الرسل هدايا للملك الايتيوبيا من المصنوعات الذهبية والحلل الحمر الارجوانية والعطور الزكية وانبذة التمر فاعجبهم كل الاعجاب من هذه الهدايا هدية الشراب فأرادوا مكافأة الملك على هديته العظيمة فاتحفوه بقوس أوترها ملكهم بحضرة سفراء قمبيز . وقال ما معناه : ان ملك اتيوبيا ينصح ملك العجم ان لا يحضر الا بنفسه لحربنا على كثرة جندنا . ولا يكون حضوره الا اذا قدر هو أو احد رعيته ان يوتر قوساً عظيمة مثل هذه القوس وحده كما اوترها وحدي في الحال . فان لم يمكنه فليحمد الاله المعبود حيث لم يرزق اتيوبيا الطمع في المسير الى بلاد العجم والاستيلاء عليها

فلما نقل الى ملك العجم هذا الجواب حنق كل الحنق وصار يطلب بلاد الاتيوبيا طائشاً مسلوب الحواس فلم يعتن بتنظيم جيشه ولا باعداد ذخائره . وبدلا من ان يقصد مدينة نبته عاصمة ملكهم اتخذ طريقة من الصحراء لانها اقرب طريق الى اتيوبيا . فانحرف عن شواطىء النيل من مبدأ اعوجاجه الكبير وأوغل بعساكره الكثيرة في الصحراء . فلما قطع ربع الطريق وصل الى سهول متسعة من الرمال لا اشجار فيها ولا كلأ للدواب ولا ماء للشرب فنفد زاده ولحق بجيشه القحط والجوع فكانت عساكره في اول الامر تأكل حيوانات حمل الاثقال . فلما فرغت جعلوا يتغذون بما يصادفهم في طريقهم من الاعشاب . ولما توغلوا في الاراضي الرملية غير المنبتة أكل بعضهم بعضاً بالاقتراع من كل عشرة انفس واحد ممن تقع عليه القرعة.فكان هذا أشد عليهم من الجوع ومع ذلك فالملك صمم على مواصلة السير حتى خاف على نفسه من الهلاك . فرجع القهقرى بمن بقى من جنوده حتى وصل الى طيبة واراد تعويض ما خسره . فاستعمل القسوة مع اهل مصر بدل الرأفة وسلب امتعة الهياكل وزينتها وذخائرها من ذهب وفضة وصارت افعال قمبيز من ذلك الحين مختلة معتلة حتى انه اتفق عند دخوله مدينة منف التي كانت أعظم مدن الدنيا انهم كانوا يقيمون في هياكلها موسماً مشهوراً لاقامة عجل جديد يسمى ابيس على التخت المعد لاقامته وكان يوم احتفال كبير يجتمع فيه الناس فظن قمبيز انهم فرحون مستبشرون بهزيمته فقتل الكهان والامراء وارباب الحل والعقد من دون أن يسألهم عن الاسباب وطعن أيضاً العجل معبودهم بخنجره فارماه والقاه للكلاب تأكله

مأثرة للسلطان الكامل حسين الاول

ذكرت في مقالي السابق ما اورده المؤرخون من غزوة قمبيز الفارسي لمصر وفشله في السودان وما نسبه هيرودوت المؤرخ اليوناني الى ذلك الملك من الاعمال الشنيعة والصفات الذميمة وغني عن البيان ان قمبيز استولى على مصر سنة ٥٢٥

قبل الميلاد الا انه في عام ٤٨٦ ق . م شق المصريون عصا الطاعة على الفرس وطردوهم من بلادهم ولكن ذلك لم يدم طويلاً فسرعان ما رجع الفرس ثانياً الى مصر رغم انف أهلها فاشتد سخط المصريون عليهم وثاروا على الملك الفارسي وطردوا عساكره عام ٤٠٥ ق . م من مصر واستقلوا ببلادهم واستمروا محافظين على استقلالهم مدة الاسرتين الثانية والعشرين والتاسعة والعشرين . وفي ايام الاسرة السمنودية المتممة للثلاثين بدأ النزاع يكبر ويستفحل بين مصر وفارس فارسلت فارس عام ٣٧٨ ق . م اسطولاً قوياً مؤلفاً من خمسمائة سفينة الى مصر بقصد الاستيلاء عليها . فانهزم المصريون في بادىء الأمر ووصلت القوى الفارسية الى تمي الامديد ثم انتهز المصريون فرصة فيضان النيل وفتحوا السدود فانهمرت بذلك المياه على مواقع الفرس وغمرتهم فانقض المصريون عليهم من كل جانب واوقعوا فيهم القتل وردوهم الى بلادهم خائبين وتخلصت مصر بذلك من ظلمهم بعد ما قاست الاهوال .

ولما تولى نقطانب الثاني عرش مصر عام ٣٥٩ بايعته الجنود المصرية وبدأ يجهز معداته الحربية لقتال الفرس . وبينما هو في الشام تآمر جماعة من المصريين برئاسة أمير من تمي الامديد على خلعه فاضطر ان يقاتل الفرس منسحباً الى مصر لحفظ العرش الفرعوني من الضياع فتغلب على العصاة وأسر أميرهم وهزم أيضاً جيوش الفرس لان عساكر المصريين كانوا بقيادة قواد يونانيين محنكين في حين كانت جيوش الفرس مختلة النظام .

وفي سنة ٣٥٨ ق . م عقد المصريون محالفة مع اهل سورية . ثم هم الفرس بالاغارة على مصر ثانية فاخضعوا سورية أولاً ثم غزوا مصر والتقوا بالجيوش المصرية بجوار قلعة طينة . فقامت الحرب بين الفريقين ودب النزاع بين القواد اليونانيين في الجيش المصري فنتج عن ذلك سقوط المدينة في يد العدو وتقهقر نقطانب الى منف وعجز عن درء خيانة اليونانيين له .

ولما رأى انهزام جنده وتبدد شمله وقرب زوال ملكه جمع خزائن امواله وهرب الى البلاد النوبية من غير رجعة . وهكذا صار السودان رمساً دفنت فيه آخر لؤلؤة من المجد الفرعوني العظيم وكان ذلك عام ٣٤٠ ق . م

واستولى الفرس من ذلك الحين على مصر ثم الرومان الى ان فتحها المسلمين.

وقبل الانتهاء من الكلام على تاريخ نقطانب الثاني آخر فراعنة مصر يجدر بنا ان نذكر هنا مأثرة من المآثر العديدة لسلطاننا المرحوم الكامل حسين الاول فقد أهدى عظمته عام ١٨٩٩ الى المتحف المصري اثراً سليماً لاصدع فيه وجد في عقار عظمته في جهة إيتاي البارود بمديرية البحيرة وهذا الاثر مصنوع من الجرانيت الازرق ارتفاعه متران تقريباً ومؤرخ في اليوم الثالث عشر من شهر مسرى للسنة الاولى من حكم الملك نقطانب الثاني • وقد ذكر فيه ما لهذا الملك من العطايا والاوقاف والامتيازات التي منحها للمعبودة (نيت) سيدة صا الحجر ومقدار الضرائب المقررة على واردات اليونان وآسيا الصغرى وهو العشر من كل شيء . وقد خصص هذه الضرائب للاوقاف المحتبسة على معبد (نيت) لانها نصرته على إعدائه الذين تآمروا على خلعه برئاسة أمير من تمي الامديد.

واتجه نظر علماء الآثار الى هذا الأثر فاجتهدوا في حل نقوشه الغريبة الصعبة الفهم لان الكاتب المصري الذي عهد اليه في نقشه اتخذ في كتابته أساليب لم تكن معهودة من قبل عند جمهور الكتاب المصريين . وذلك انه استعمل كثيراً من الحروف الهجائية البسيطة بدل الحروف المركبة تسهيلاً للاجانب من اليونانيين الذين شملهم الملك نقطانب برعايته . فنشأ عن هذا الاسلوب مصاعب شتى في حل نقوشه وفهمها

وقد اهتم النقاش المصري باتقان الرسوم البديعة التي ملأت اعلى الاثر • فرسم في قمته قرص الشمس مجنحاً والى يمينه ويساره صورة الملك نقطانب الثاني كأنه يتقرب بالقربان لامه نيت سيدة صا الحجر . أما في جهة اليسار فيشاهد

الملك متحلياً بالشعر المستعار على رأسه وفوقه قرص الشمس محاطاً بقرنين ويعلوه ريشتا العدالة وهو بهذه الهيئة يقدم وشاحاً كبيراً للمعبودة نيت. أما في جهة اليمين فتراه متوجاً بالتاج الاحمر حاملاً بيده مائدة فيها نبيذ وخبز يقدمها للمعبودة المذكورة

والى يسار الاثر تشاهد المعبودة نيت سيدة السماء وحاكمة البحر الابيض المتوسط كأنها تمنح الملك السيادة على الاقطار الاجنبية وتشاهد الى اليمين كأنها سيدة الاحياء موجدة الكائنات وهي بهاتين الهيئتين تسبغ الهبات الجزيلة على الملك نقطانب الماثل أمامها

ويلي ذلك نقوش محفورة في اربعة عشر سطراً رأسياً تقرأ من اليمين الى اليسار . ويلي ذلك التوقيع الملكي باسم نقطانب الثاني الرئيس المتمتع بالصحة والسلامة الخالد الذكر واهب الحياة الوطيدة والصحة والعافية والبشر والسرور كالشمس الابدية .

ويعد هذا الحجر اول اثر عثر فيه على الاسم اليوناني لمدينة نقراطيس مكتوباً بحروف مصرية تقرأ نوكرات وكرات. واستدل منه ان الايراد المحصل من الجمارك للخزانة المصرية من تلك الجهة وافر جداً لان واردات اليونان وآسيا الصغرى كان يؤتي بها عن هذا الطريق وكانت الضرائب المقررة عليها العشر من كل شيء .

وقد خص الملك نقطانب هذه الضرائب للاوقاف المحبسة على معبد نيت بمدينة صاالحجر ولما كانت عادة الفراعنة ان ينقشوا على الواح حجرية جميع ما يهم المهنة مثل الاوقاف والوقائع الحربية ونحوها أصدر نقطانب أمره بصنع هذا الحجر جرياً على عادة اسلافه واوصى ان يوضع في مدينة نقراطيس تخليداً لذكره.

الكلام على مروة

وصلت في كلامي السابق عن تاريخ السودان الى ايام الملك نقطانب الثاني آخر فراعنة مصر والآن اذكر ان البعثة العلمية الاثرية التي ارسلتها الولايات المتحدة الى السودان من عام ١٩١٩ الى ١٩٢٠ جعلت همها البحث والتنقيب عن آثار جبل برقل بجوار نبته (عاصمة اتيوبيا القديمة) وكانت برئاسة المستر أشتون والمستر ستورس والمستر ريزنر . فوصلت الى معلومات تاريخية قيمة ملأت كثيراً من الفراغ في العصور المجهولة وخصوصاً في عهد الامبراطورية المصرية وبداية المملكة السودانية . ومن سنة ١٩٢٠ الى ١٩٢٢ بدأت البعثة تبحث وتنقب في الاهرامات الملكية في جهة مروة برئاسة المستر دنام والمستر ريزنر فاكتشفت اشياء كثيرة كانت غامضة في تاريخ مملكة اتيوبيا الجنوبية

ومما يؤسف له ان معلوماتنا عن تاريخ البلاد الواقعة على ضفتي النيل الاعلى قليلة جداً مع ان تلك البلاد كانت موضع التحدث والاعجاب في الازمنة الغابرة . وأورد استرابو في الجزء السابع عشر من مجموعته الجغرافية كثيراً من معلومات تلك الجهة اتضحت لنا الآن صحتها الا انه لم يذكر لنا غير ملكة واحدة لتلك البلاد وصفها بانها ذات عين واحدة من دون أن يتعرض لذكر اسمها . اما بليني فذكر في تاريخه الطبيعي اخباراً عن السودان اكثر من استرابو ولكنها مبالغ فيها كثيراً فهي لذلك بعيدة عن الصواب . ثم اتى ديودور الصقلي وذكر لنا اسم حاكم واحد للسودان وهو (ارجامينس)

قال بليني ان المؤرخ الشاب سيمونيديس عاش خمس سنوات في مروة كتب في أثنائها تاريخ اتيوبيا . وروى أيضاً ان هنالك مؤرخاً آخر اسمه داليون وصل الى مروة وتوغل في السودان الى أبعد من ذلك ولكن لم يصلنا شيء من كتابة

هذين المؤرخين والظاهر انها فقدت كما فقدت كتب المؤرخين الآخرين الذين كتبوا عن السودان والذين ذكرهم بليني في كتاباته الكثيرة

والغريب ان الآثار المصرية التي يرجع تاريخها الى عهد البطالسة لم تذكر شيئاً عن مروة بالمرة تقريباً ولكن وجدت نقوش ديموطيقة في جهة اسوان يرجع تاريخها الى آخر عهد البطالسة وأول عهد الرومان ذكر فيها ان بعض الاتيوبيين أتوا من مروة لزيارة القطر المصري وبينهم ملكان يقال لأحدهما (باونكاش) وللآخر (تريرماني) وهذا الاخير يرجع تاريخه الى حوالي سنة ٢٥٤ قبل الميلاد

ثم اتضح للاثريين ان تاريخ مملكة مروة الاتيوبية لايمكن ان يعرف الا بعد الحفر والتنقيب في آثار تلك الجهة . ولما فتح المرحوم محمد علي باشا السودان في أوائل القرن السابق تمكن الاوربيون من زيارة تلك البلاد . ثم اتجهت انظارهم الى مروة وما حولها . فكان اول من اكتشف محل مروة هو كايو الاثري الفرنسوي وتوصل الى معرفة ذلك بكثرة الاطلال والاهرامات الاثرية والقريبة من الجهات المعروفة باسماء البجاروية والكابوشية والصور وغيرها وذلك على الشاطىء الشرقي من النيل في المكان المعروف الآن بجزيرة مروة

وتقع اهرامات مروة في ثلاث سلاسل الاولى في الصحراء غربي المدينة ويقال لها الجبانة الغربية والاخريان تبعدان عن المدينة بنحو ميلين شمالاً وجنوباً وتعرفان بالجبانة الشمالية والجبانة الجنوبية

واول من بحث في آثار مروة هم المسيو كايو الفرنسوي والمستر هوسكنس الانكليزي والهرليبسيوس الالماني . ونظراً لما اصاب تلك الآثار من التلف منذ عهد هؤلاء الاثريين أصبحت كتبهم البقية الباقية من تلك الآثار . وتمتاز مباحث ليبسيوس بدقتها وكثرة رسومها واتقانها مما جعلها موضع اعجاب الباحثين

على ممر الايام واستدل من هذه المباحث على اسماء عدة ملوك وملكات الا أننا لا نزال نجهل تاريخهم بالضبط (ما عدا الملك إرجامينيس)

ومن سنة ١٩٠٩ الى سنة ١٩١٤ اشتغل الاستاذ جارنستانج بكونه نائباً عن جامعة ليفربول في البحث عن آثار مروة. فقام هنالك باعمال عظيمة حيث عثر على عدة نصوص اثرية مهمة ضمنها اسماء ملكية عديدة ولكنه لم يتمكن وقتئذ من الوصول الى معرفة علاقة هؤلاء الملوك بعضهم ببعض

وربما كان أهم اكتشاف في تاريخ مروة هو الذي قام به الاستاذ جريفث فقد توصل هذا العلامة الى حل الخط المروي • قال ليبسيوس ان ملوك مروة استعملوا أحياناً الخط الهيرغليفي على جدران معابدهم وطوراً خطاً قريباً جداً من الخط الهيرغليفي محوراً عنه يسيراً وتارة خطاً معرجاً يختلف بالمرة عن النوعين السابقين • وقد توصل الاستاذ جريفث الى معرفة احرف هجاء الخطين الاخيرين ونطق ببعض احرفها وترجمة بعض نقوشها ولا يخفى ان صعوبة فهم الخط المروي ترجع الى انه لم يعثر الى الآن على نصوص منه مترجمة بلغتين أو ثلاث كما وجد ذلك في النصوص الهيرغليفية والبابلية لان ذلك يساعد كثيراً على فك الخط وفهم مدلول الكلام ومع ان مباحث الاستاذ جريفث ليست كاملة الا انها تمكن الباحث في آثار مروة من ان يقرأ الاسماء الملكية والقابها وفهم مايقرب من خمسين كلمة • ولقد تطلب هذا الاكتشاف مدة طويلة وتعباً كثيراً مما عاد على صاحبه بالفخر والثناء

وكان من اكتشاف الاستاذ جريفث اللغوي ان توصل الاثريون الى معرفة اسماء ملكية نوبية كانت مجهولة الى ذلك الوقت والى معرفة اصحاب مقبرتين ملكيتين في جهة مروة • واطلع الاستاذ ريزنر الاثري على اكتشاف الاستاذ جريفث فتمكن به من اكتشاف اربعة اسماء ملكية نوبية ومعرفة اهراماتهم • ومع ذلك فتاريخ مروة كان مجهولاً الى عهد قريب ولم تكن عند الاثريين وقتئذ حيلة لمعرفته الا اتباع ترتيب اهرامات مروة ليحكموا بذلك على ترتيب ملوكها

تقهقر العاصمة الى الشلال السادس

اكتشفت البعثة الاميركية الاثرية معلومات كثيرة في اثناء تنقيبها في الاهرامات الملكية القديمة في جهة نبته الواقعة قرب الشلال الرابع بالسودان وصحت عزيمتها على ان تنقب في اهرام مروة لتقف بذلك على تاريخ ملوك السودان الاخيرين وترتيبهم في الحكم . واتخذت لذلك قاعدة بسيطة ذات قيمة جليلة تتلخص في ان ملوك مروة حكموا السودان على التوالي الواحد بعد الآخر وبين وفاة الواحد منهم والذي يليه نحو جيل تقريباً وانهم دفنوا بالترتيب بحسب وفياتهم في اهرام بالجبانة الملكية بمروة . هذه هي القاعدة التي سار عليها افراد تلك البعثة في مباحثهم الاثرية التي وقفوا بها على معلومات هامة لها تأثير كبير في تاريخ السودان القديم . فحفروا هذه المقابر المتعاقبة التاريخ ثم اجتهدوا في وضع كل ملك منهم في مقامه التاريخي بالنسبة الى غيره . ولا يخفى انه متى علم لنا كيف رتبت تلك المقابر سهل علينا معرفة ادوار حكم اصحابها ولم تبق ثمت صعوبة الا معرفة اسمائهم بالضبط كما وردت في مقابرهم . وقد المعت في مقالي السابق الى ان في مروة ثلاث سلاسل من الاهرام الملكية . احداها غربية ويقال لها الجبانة الملكية . الثانية شمالية ويقال لها الجبانة الشمالية والثالثة قبلية ويقال لها الجبانة القبلية ولا بد للأثريين ان يعلموا قبل البدء في حفر تلك الاهرامات شيئاً عن ترتيب هؤلاء الملوك وتاريخهم حتى يمكنهم كشف سر اهراماتهم فينبغي لنا أولاً ان نورد هنا شيئاً من تاريخ مملكة السودان الشمالية وآثارها في جهة نبته

سبق لنا ان قلنا ان المملكة السودانية نشأت عقب الاضطرابات والفوضى التي كانت ضاربة اطنابها في القطر المصري فاستاء بعض افراد العائلات المالكية من تلك الحالة المحزنة وهاجروا الى السودان ليبنوا لهم وطناً ثانياً ويستنجدوا باهله فيساعدوهم على بسط السلام والعدل على البلاد المصرية وعضدهم في ذلك كهنة آمون

في طيبة حتى صار لسلطتهم تأثير عظيم في العرش السوداني فتمكنوا من انزال الملوك عن عروشهم اكراهاً وقسراً كما اقتضت الحال ذلك.وقلنا ايضاً ان نظام السودان كان عقب مجهودات مصرية زمناً طويلاً وان اليونانيين اخطأوا حيث قالوا ان السودان اصل رقي مصر ومنشأمدنيتها . وهذا الخطأ نتيجة انحطاط مصر وتقدم السودان ذلك التغيير الذي جعل تلك الفكرة تتسرب الى اذهان العامة فضلاً عن الخاصة

وأول ملك سوداني حكم في نبته دفن بجوارها على قمة تل من تلالها . ثم صار قبره بدء سلسلة قبور ملكية والذي دفن بعد هذا هو الملك كاشتا وهو اول ملك سوداني بسط نفوذه على الوجه القبلي حتى طيبة . وهكذا صارت جبانة نبته اول جبانة ملكية لاتيوبيا . ثم اتى بيعنخي وشباكا فشيدا لهما هرمين في تلك الجهة لاستعمالها قبرين لهما ولكن لما تسنم طهراقة عرش السودان لم يجد في تلك الجبانة متسعاً ليشيد هرمه الكبير الذي يعد اكبر اهرامات اتيوبيا.فاختار لذلك مكاناً في جهة نوري على بعد خمسة أميال شمالي نبته

ومعلوم ان تسلط طهراقة على مصر كان سبباً في نشوب حرب بينه وبين مملكة اشور بانيبال فاضطر طهراقة حينئذ ان يتقهقر الى الوجه القبلي واستمرت هذه الحرب عشر سنوات . ولما تولى تانوت آمون عرش السودان اقام في نفسه ان يسترجع مصر الا ان الاشوريين هزموه شر انهزام فولى وجهه مسرعاً شطر وطنه وكان ذلك نحو عام ٦٦١ قبل الميلاد . وما اشد الضربة التي تلقاها هذا من آشور وما اقواها .فقد امتنع من جرائها طول حياته عن استرداد ما كان يطمع فيه . وتوفي ودفن في جهة نبته في هرم صغير بجوار هرم والده شباكا

وأخذت اتيوبيا بعد ذلك تتدرج في الرقي والفلاح نحو ٣٥٠ سنة أي الى حوالي سنة ٣٠٠ قبل الميلاد فكانت المملكة السودانية في ذلك الحين تتألف من الاراضي الواقعة بين مستنقعات النيل الابيض جنوباً الى الشلال الاول شمال

ويبلغ عدد الملوك الذين حكموا ذلك الزمان عشرين ملكاً دفنوا كلهم في نوري ما عدا واحداً أتى حوالي سنة ٣٥٠ ق . م وشيد هرماً له في جهة نبته

ثم ان السودانيين لما استقلوا ببلادهم اتوا بعدد كبير من الصناع المصريين لبناء معبد آمون الكبير في جهة نبته القريبة من جبل برقل قرب الشلال الرابع ومن هؤلاء الصناع البناؤون والنحاتون والكتبة والصياغ وارباب المهن اليدوية الراقية . فاسسوا بذلك مدرسة صنائع مصرية في نبته وهكذا انصبغت صنائعهم بالصبغة المصرية وهذا يعد اكبر اساس في تقدم اتيوبيا . ثم ان اللغة المصرية والنصوص الدينية المصرية اخذت تعم البلاد مئة سنة ثم اخذت هذه الحضارة تضمحل حتى فقدت مسحتها المصرية وذلك بعد مرور نحو ثلاث مئة سنة . وفي ذلك الحين انتقلت عاصمة الملك من نبته الى مروة حيث بدأت المدنية السودانية تظهر بثوب جديد مع انها في واقع الامر مصرية الاصل ادخل عليها تغيير وابدال غيراها كثيراً عن حالها الاصلي .

والاحظ ان السودانين اختاروا مدينة نبته الواقعة قرب الشلال الرابع عاصمة لهم لعدة اسباب جوهرية . منها انها قريبة من القطر المصري الذي كان تحت النفوذ السوداني في ذلك الحين ومنها انها كانت واقعة على طريق المواصلات بين القطر المصري والقطر السوداني ومنها انها كانت قريبة من مناجم الذهب . ولا يخفى ان اقليم السودان الذي فيه هذه المدينة هو افقر جهاته من حيث الزراعة والخيرات اما الجانب الجنوبي من السودان فكثير الاراضي الزراعية والذهب والعبيد والعاج والابنوس وريش النعام والراتنج والبخور وجلود الفهود وغيره من الخيرات التي كانت ترسل الى مصر للاتجار بها عن طريق النيل أو الصحاري. فلما استقل السودان كانت مدينة نبته مقر حكومته فوضعت يدها على طرق مواصلات مصر وبدأت تحتفظ لنفسها بكل خيرات بلادها وذلك في حكم العشرين ملكاً الذين حكموا السودان بعد غزو آشور . ولا يخفى أيضاً ان شمال السودان شحيح المطر

كثير الرمال وان جنوبه كثير السكان والامطـار والزراعة سهل المواصلات ويحوي كثيراً من المراكز التجارية . لذلك كانت محصولاته الزراعية كثيرة وحيواناته عديدة وكذلك اشجار الابنوس والراتنج . وقصارى القول ان هذا الجانب من السودان كان حاوياً لـكل ما يحتاج اليه اهله

فلما شل النفوذ السوداني على مصر وشح الذهب في مناجمه الشمالية اضمحل بذلك اعظم جانب من ثروة تلك الجهات فصممت الحـكومة (حوالي سنة ٣٠٠ ق . م) ان تنتقل من نبته الى مروة في جهة الشلال السادس حيث يكثر النعيم والخير من غير تعب ولاعناء

طرق البحث عن آثاره

ثبت لنا من المقال السابق ان مملـكة مروة نشأت تبعاً لمملـكة نبته وعلى ذلك تكون اقدم اهرام مروة أقربها شبهاً في البناء والنقوش والوضع والنصوص الدينية والاثاث من أحدث اهرام نبته والمعروف ان هرم الملك نستاسن في نوري هو احدث تلك الاهرام

ويعود الفضل في الموازنة بين هذه المقابر الى الاستاذ ريزنر الأثري الاميركي فانه اتضح له ان هرمين في جبانة مروة الجنوبية كثيرا الشبه بهرم نستاسن المذكور فظن أنهما أقدم اهرام مروة . وعلى هذه النظرية بدأ يحفرهما فاتضح له صدق نظريته اذ وجد ان حجرة المدفن ومحتويات القبر في هذين الهرمين كانت كثيرة الشبه بما يماثلها في هرم نستاسن . وواصل هذا الأثري حفر الاهرام الاخرى فاتضح له انها شيدت لتكون مقابر لستة ملوك وخمس ملـكات لهن علاقة بأولئك الملوك . واكتشف كذلك هرماً تاسعاً لملـكة اسمها « خنوى » واقعاً في الجهة الشماليه الغربية من الاهرام المذكورة فوجده تابعاً للعائلة المالـكة نفسها وهكذا ثبت ان الاهرام التسعة في جنوبي نبته هي أقرب شبهاً الى اهرام نوري . وعلى ذلك تكون احدث منها واقدم عهداً من مقابر جبانتي مروة الشمالية

والغربية . ولما كان السهل الذي بنيت فيه المقابر الجنوبية لايسع الا ثمانية قبور فقد اضطرت صاحبة المقبرة التاسعة وهي الملكة خنوى ان تشيد مقبرتها على انفراد في سهل مجاور واذا فحصنا هذه المقابر التسع اتضح لنا ان اول مقبرة شيدت منها هي الواقعة على قمة تل هناك ويرجع تاريخها الى عهد الملك بيعنخي ثم شيدت المقابر الاخرى التي بجوارها في خط مستقيم تقريباً بحسب ترتيبها التاريخي واستدل من الاشياء التي وجدت في داخل أقدم هذه القبور على أنها تشابه تماماً محتويات قبور نبته ولوحظ على بعضها رسوم يرجع زمنها الى عهد ملوك نبته أيضاً . واتضح من النصوص الهيروغليفية الموجود على جدران بعض هذه المقابر ان اصحابها كانوا أعضاء من عائلات ملوك نبته ولذلك فجبانة مروة الجنوبية تحوي جثث أقارب ملوك نبته ولما تولى بعض هؤلاء الاقارب الملك دفنوا في الجبانة الجنوبية أيضاً وهكذا صارت هذه الجبانة أقدم جبانات مروة الملكية عهداً

ومعلوم ان المملكة السودانية كانت تمتد في ايام الملك بيعنخي من مستنقعات النيل الابيض جنوباً الى شواطىء البحر الابيض المتوسط شمالاً وأن ملوك السودان كانوا يعينون اقاربهم حكاماً على مصر باسم ملك السودان كما انهم كانوا يعينون غيرهم حكاماً على اتيوبيا الجنوبية أيضاً فنشأ من ذلك في مروة (عاصمة اتيوبيا الجنوبية) فرع من العائلة المالكة خرج منه الملك نستابسن الذي تولى عرش اتيوبيا في ما بعد . وعثر في جبل برقل بجهة نبته على حجر اثري لهذا الملك وصفت فيه طريقة تتويجه والاحتفالات التي اقيمت له في نبته . أما قبر هذا الملك فقد وجد في نورى وهو آخر قبور تلك الجهة عهداً

واتبعت طريقة الموازنة أيضاً للبحث في تاريخ الجبانة الشمالية والغربية فثبت ان الجبانة الشمالية انشئت بعد ما إمتلأت الجبانة الجنوبية . ويلاحظ ان الجبانة الشمالية واقعة على هضاب حجرية بديعة المنظر وهي تخترق وادي الطرابيل على بعد مئتين وخمسين متراً من الجبانة الجنوبية ولما فحصت مقابر هذه الجبانة اتضح

ان اقدمها عهداً هو اقربها شبهاً لمقابر الجبانة الجنوبية وان احدثها مبني باللبن (الطوب) على اسلوب غير متين يظن انه من العصر المسيحي وعلى ذلك فالجبانة الشمالية أتت بعد الجبانة الجنوبية في التاريخ . ويبلغ عدد مقابر الجبانة الشمالية واحداً واربعين قبراً اثنان منها لوليي عهد المملكة وخمس للملكات والباقي للملوك . ويظهر انه كان للملكات في تلك العصور سلطة رهيبة كبيرة لانهن حفظن لانفسهن مركزاً مماثلاً لمركز الرجال أبهة وقدراً

واتضح ايضاً من فحص هذه المقابر ان نساء الملوك وخدامهم كانوا يدفنون معهم في مقابرهم ظناً منهم انهم سيقومون بخدمتهم في الآخرة كما كانوا يفعلون في دنياهم . أما الملكات اللاتي اعتلين عرش السودان فلم يدفن مع ازواجهن بل شيدت لهن مقابر خصوصية ملكية كالملوك تماماً ويختلف عدد الملكات في مروة من خمسين الى ستين ولما فحص الاستاذ ريزنر مقابر الجبانة الغربية لمروة وجد ان بعضها معاصر لمقابر الجبانة الشمالية والبعض الآخر احدث منها عهداً .

فمن ذلك يتضح لنا اولاً — ان الجبانة الجنوبية هي جبانة لاعضاء العائلة المالكة (دون الملوك) ويرجع تاريخهم الى ما بين سنة ٧٢٠ وسنة ٣٠٠ قبل الميلاد وان المقابر التسعة المذكورة آنفاً هي اقدم عهداً وأحسن بناء وانها شملت مساحة الجبانة كلها تقريباً

ثانياً — ان الجبانة الشمالية انشئت تبعاً للجبانة الجنوبية وهي تحوي مقابر الملوك والقائمين بأعمالهم ويرجع تاريخهم الى ما بين سنة ٣٠٠ قبل الميلاد وسنة ٣٥٠ بعد الميلاد

ثالثاً — الجبانة الغربية كانت معاصرة لآخر عهد الجبانة الشمالية واستعملت بعد ذلك مدة طويلة وهي تحوي مقابر نساء وأولاد وأقارب الملوك المدفونين في الجبانة الشمالية

وهكذا ظهر ان تاريخ ملوك السودان الذي يبدأ من سنة ٣٠٠ قبل الميلاد وينتهي في سنة ٣٥٠ بعد الميلاد يجب ان يبحث عنه في آثار جبانتي مروة

الشمالية والجنوبية اللتين يبلغ عدد المقابر فيهما خمسين تقريباً ولطول مدة تاريخ الحكام وكثرة عدد مقابرهم وشدة ما حل بها من التلف يجد الباحث في أول الأمر صعوبة عظيمة لحل هذه الالغاز لكنه اذا اتبع بعض القواعد الفنية سهل عليه ذلك ولنذكر للقارىء لهذه المناسبة بعض هذه القواعد التي اتبعها الاثريون في مثل هذه الاحوال ونجحوا فيها وذلك لكي يكون عنده فكرة عن علم العاديات وكيفية تطبيقه فمن هذه القواعد ما يأتي

(١) اذا وجد هرمان متصلان أحدها بالآخر اتصالاً تاماً ثم اتضح ان جانباً من جدار احدها مشيد على طرف جدار الآخر فلا بد أن يكون الثاني أقدم عهداً من الاول

(٢) ان أقدم الاهرامات هو المبني في أحسن مكان بالجبانة وان الاهرامات القريبة منه هي أقرب عهداً من غيرها

(٣) لكل عصر طريقة معمارية وعادات قومية وأصول دينية تميزه عن سواه كما انه لا يبعد ان يكون بعض البنائين قد عاشوا مدة كافية لان يبنوا هرمين للملكين. ومعلوم أيضاً ان العادات والعقائد الدينية بطيئة التغيير وعليه فكلما قوي الشبه بين هرمين من حيث المعمار والمحتويات والوضع والنصوص الدينية وغير ذلك كلما كانا قريبين في العهد

هذه قواعد بسيطة واضحة يمكن اتباعها في البحث عن تاريخ مقابر أي جبانة أثرية وآثارها وهكذا توصل الاثريون الى معرفة تاريخ الملوك والملكات المدفونين في جبانات مروة الثلاث

اكتشافات اثرية حديثة

ابنت في مقالي السابق الطرق التي توصل بها العلماء الى معرفة تاريخ مقابر مروة الملكية. واليوم أبين التغيير الذي طرأ منذ سنة ٦٠٠ قبل الميلاد على عمارة تلك المقابر وهو تغيير مكن علماء الآثار من الحكم في تاريخ كل مقبرة فنقول:

بدأت العادة ببناء ثلاث غرف في كل هرم ثم اخذ هذا العدد يقل على مرور الزمن . ولوحظ ان استعمال العمد استمر طويلاً في الغرفة الخارجية الا انه زال اخيراً . ثم اخذ عدد الحجر السفلى في قاعدة الهرم يقل تدريجاً حتى أبطل بتاتاً . وقد رأينا ان نورد هنا وصف الحجر الثلاث التي توجد في داخل الهرم متوخين في ذلك الايجاز . فان جدران الحجرة الاولى كانت محلاة بنقوش ودعوات من كتاب الموتى . والحجرة الثانية كبيرة واقعة في محوز الهرم وعلى جدرانها نقوش براءة الميت من ذنوبه (وهي نصوص مأخوذة من كتاب الموتى) وأما الحجرة الثالثة فطويلة تحوي جثة الميت ومعظم الهدايا والقوابين . ولوحظ أيضاً كمية يسيرة من تلك القرابين في الحجرتين الاخيرتين واستمر بناء الحجر الثلاث في داخل الهرم نحو خمسة قرون أي منذ سنة ٦٠٠ الى سنة ١٠٠ قبل الميلاد . ثم اخذ يتغير تدريجاً في الشكل والحجم واخذت نقوشها وأثاثها تقل فزالت فائدة الحجر الثلاث وقل عددها فعلاً حوالي سنة ١٠٠ قبل الميلاد ويعزى ذلك الى فقر العائلة المالكة التي انقسمت حينئذ الى قسمين احدهما في اتيوبيا الشمالية وعاصمتها نبته والثاني في اتيوبيا الجنوبية وعاصمتها مروة . فانشطرت بذلك ثروة المملكة الى شطرين وشحت مواردها وقلت خيراتها وانحطت أبهة مقابرها الملكية .

ويوجد بجوار نبته في جهة جبل برقل ثمانية عشر هرماً حفرتها وبحثت عن آثارها بعثة جامعة هرفرد وبوستن الاميركيتين وذلك في سنة ١٩١٦ ومع كل ما نشرته هذه البعثة من الوصف الطويل وذكر المشاهدات وايراد الرسوم وعمل الصور الفوتوغرافية لم يهتد اعضاؤها الى نتيجة تاريخية حاسمة فارجيء البحث فيها الى المستقبل . فلما اتضح تاريخ اهرام مروة بالطريقة المذكورة آنفاً اخذت هذه البعثة الاثرية تبحث في اهرام نبته ، فاتضح لها ان الترتيب والمشاهدات التي اتبعت في مروة كافية لحل لغز اهرام نبته التاريخي .

وعلى هذا المنوال توصل الاثريون الى معرفة عصور اهرام السودان العديدة وانما اعترضت لهم صعوبة كبيرة في معرفة اسماء أصحاب تلك الاهرام . ففحصوا النقوش الموجودة على جدران الهياكل والتوابيت وتمكنوا من معرفة كثيرين من أصحاب مقابر مروة الشمالية ولا يزال البعض الآخر مجهولاً الى الآن غير ان الاثريين قد يوفقون الى معرفة اسماء بعضهم بعد ترميم جدران تلك الاهرام وهيا كلها وضم اجزاء التوابيت المكسرة بعضها الى بعض . هذا وقد وجدت عدة اسماء ملكية في اماكن أخرى غير الاهرام على احجار وآثار متنوعة

وبعد ذلك اخذت البعثة الاثرية تبحث في مقبرة الملك ارجامينيس السوداني فاتضح لها ان هذا الملك كان معاصراً لبطليموس الرابع الذي حكم من سنة ٢٢٥ الى سنة ٢٠٥ قبل الميلاد

وظهر لها أيضاً انه لما توفي الملك ارجامينيس انقطعت أخبار ملوك مروة نحو مئتي سنة وانه في سنة ٢٣ قبل الميلاد قامت مشاغبات وفتن اثارتها الجنود السودانية في جهة اسوان فأرسل الرومان جيشاً الى تلك الجهات بقيادة جايس بترونيس فاستولى على نبته ودمرها . ووصف استرابو هذه الغزوة في الجزء السابع من مجموعته الجغرافية وأورد أخباراً كثيرة يغلب انها حقيقية لانه كان في اسوان قبل تلك الغزوة بسنة أو سنتين وكان أيضاً صديقاً حميماً لبترونيس . ومما قاله استرابو ان اتيوبيا كان يحكمها حينئذ ملكة مسترجلة بعين واحدة اسمها كانديس ظناً منه ان ذلك اللفظ هو اسمها الحقيقي وهو خطأ . وقال أيضاً ان الجيوش السودانية انهزمت في كل معركة اشتبكت فيها مع الجيش الروماني فكان السودانيون يتقهقرون حتى بلغوا نبته حيث تحصن فيها ابن الملكة المذكورة والتجأت هي الى قلعة جنوبي نبته . وبعد ذلك هجم الرومان على نبته واستولوا عليها ودمروها تدميراً ولكن بعد ما تمكن ابن الملكة السودانية من الفرار . وعاد بترونيس الى اسوان.

وكان من أصعب العقد حلا معرفة اسم هذه الملكة الحقيقي خصوصاً بعد ما اظهر لنا الاستاذ جريفث أن لفظ « كانديس » يعني « ملكة » فلما حفرت اهرام نبته التي يرجع تاريخها الى عهد بترونيس الروماني وجد قبر هذه الملكة مع قبور ثلاث ملكات متجاورة واستنتج من رواية استرابو عن تدمير الرومان لمدينة نبتة ان معبد آمون الكبير لا بد وأن يكون قد دمر أيضاً . ثم اكتشفت البعثة الاميركية ذلك المعبد واتضح لها انه رمم وأصلح قديماً وان الرسوم والنقوش الموجودة على جدرانه كتبها مصريون أحضروا خصيصاً لهذا الغرض وان الملك الذي أجرى هذا الترميم كان (خبر كارع الثاني) وانه أتمه بعد تدمير الرومان للمعبد المذكور . ومن حسن الحظ ان الملك خبر كارع الثاني هو من أشهر ملوك اتيوبيا المعروفين وقد اكتشف قبره في جهة مروة وورد اسمه في سبع أبنية واقعة في نجا ومروة ونبته والعمارة وقد اتضح ان هذا الملك كان سيء الحظ لانه توفي له نجلان بعد ماأوشكا أن يتسلما مقاليد الحكم منه فورثه في الملك ابنه الثالث . ووجدت اهرام هؤلاء الانجال الثلاثة في جهة مروة . وظهر أيضاً ان الملك خبر كارع الثالث تقلد الملك عن طريق زوجته ابنة الملكة (امان شاخيت) وان هذه الملكة هي التي حكمت السودان لما غزا الرومان نبته ودمروها . وان السودان كان حينئذ مقسوماً الى مملكتين مملكة شمالية عاصمتها نبته ومملكة جنوبية عاصمتها مروة فلما انكسرت شوكة ملوك نبته أثر غزوة الرومان رأت الملكة (امان شاخيت) أن تضم نبته الى مروة فقبضت مروة على أزمة الحكم وبسطت سيادتها على نبته أيضاً

انقراض مملكة مروة

كيف انقرضت مملكة مروة السودانية ؟ هذا سؤال لا يزال غامضاً على علماء الآثار الى الآن ولكن وجدت نقوش ملكية في جهة اكسوم ببلاد الحبشة يؤخذ منها أن ملك تلك الجهة غزا مروة حوالي سنة ٢٥٠ بعد الميلاد لما كانت بلاد ايتيوبيا الشمالية منقسمة الى عدة امارات صغيرة وسلطة مروة منحصرة في

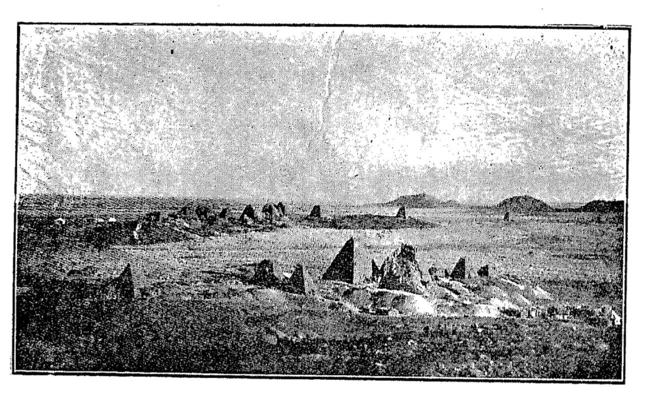
دائرة تلك الجزيرة . ثم اتضح ان آخر هرم شيد في جبانة مروة الشمالية يرجع تاريخه الى زمن غزوة الاحباش المذكورة لذلك يرجح بعض علماء الآثار انقراض المملكة السودانية في ذلك الحين وان الحكام السودانيين الذين تولوا الحكم بعد ذلك كانوا اشبه بولاة أو امراء ليس لهم من النفوذ والسلطة ما يؤبه به

وقد أبنت في مقالاتي السابقة معظم الاكتشافات الحديثة عن تاريخ مملكة ايتيوبيا في ستة قرون ونصف قرن تبتدىء من سنة ٣٠٠ قبل الميلاد وتنتهي حوالي ٣٥٠ بعد الميلاد وهي المدة التي كانت حكومة مروة قابضة فيها على ادارة شؤون القطر المصري . قال استرابو في مجموعته الجغرافية في الجزء السابع عشر ان اهالي ايتيوبيا لايزالون يتبعون عادتهم القديمة وهي انه اذا اصيب ملك لهم بعاهة في جسمه عرضاً أو قصداً فجميع اتباعه يحدثون باجسامهم تلك العاهة أيضاً ليظهروا شدة عنايتهم وحرصهم على ملوكهم . ولا يخفى ان هذا القول لا يمكن تصديقه لانه لا يعقل أن حاشية الملكة السودانية وجميع اتباعها الذين زاروا مصر في أيام الرومان سنة ٢٣ قبل الميلاد فقأوا عيونهم ليكونوا عوراً مثلها . وربما يكون هناك شيء من الحقيقة في رواية استرابو وهو انه اذا توفي ملك في السودان دفنت معه حاشيته

ولقد كانت هذه العادة متبعة في مصر حتى العهد الحجري قبل حكم العائلات ثم ابدلت في العصور التالية بتماثيل صغيرة للخدم والحاشية في المقبرة الملكية واستمرت هذه العادة جارية في اهالي السودان ايام عهد الامبراطورية المصرية الوسطى وبقيت هناك حتى زمن الملك بيعنخي الذي دفنت معه خيله في مقبرته الملكية جهة نبته . وتبين ايضاً ان هذه العادة اتبعت في نبته في القرن الثاني قبل الميلاد الى ما بعد ذلك . قال الاستاذ ريزنر ان بعض قبائل افريقية الوسطى لايزالون متمسكين بهذه العادة الى الآن .

ولنبحث الآن في معنى لفظة كنداكة أو « قنديس » كما يسميه الاوربيون فنقول ان بليني أورد في الجزء السابع من تاريخه الطبيعي ان أبنية مدينة مروة كانت قليلة وان حاكمة هذه المدينة امرأة يقال لها كانداكة وهو لقب يطلق على كل ملكة حكمت تلك المملكة منذ ذلك العهد. وأورد استرابو رواية تشبه هذه ورد ذكرها قبلاً . وجاء في الكتاب المقدس في سفر أعمال الرسل في الاصحاح الثامن اسم كنداكة هذه في العبارة التالية « واذا رجل حبشي خصي وزير لكنداكه ملكة الحبشة كان على جميع خزائنها . فهذا كان قد جاء الى أورشليم ليسجد وكان راجعاً وجالساً على مركبته وهو يقرأ النبي أشعيا » فاتضح من ذلك ان كنداكة تعني حاكمة اثيوبيا وهذا هو السبب في تعمم الفكرة القديمة بان مملكة ايتيوبيا المروية كانت دائماً تحت حكم النساء . ولكن الاستاذ جريفث الانكليزي أظهر أخيراً ان لفظة « كنداكة » تعني «ملكة» فقط فهو لذلك صفة . وقد ثبت ذلك عملياً بعد حفر مقابر مروة فقد ظهر ان معظم حكام ايتيوبيا كانوا رجالاً ويظن ان النساء تولين الملك لما كان اولادهن صغاراً حتى اذا بلغوا السن الموافقة تخلت النساء لاولادهن عن مراكزهن . اما هؤلاء الملكات فكن موضع احترام وتبجيل من اولادهن وسائر اعضاء عائلتهن المالكة لذلك دفن في مقابر ملكية عظيمة كما دفن الملوك

الآن وقد اوردنا ما يمكن ايراده عن تاريخ مملكة مروة يجدر بنا ان نلخص تاريخ المملكة السودانية ليعلم القارىء علاقة حوادثها التاريخية بعضها ببعض فنقول انه حوالي سنة ٩٠٠ قبل الميلاد هاجر بعض اعضاء العائلة المالكة التي كانت حاكمة على مصر الى السودان بعد ما تولاهم اليأس من سوء ادارة القطر المصري وكثرة اضطراباته ثم اتحد بهم كهنة أمون معبود طيبة وهاجروا الى السودان واسسوا فيه حركة ثورية ضد مصر قاصدين ابطال الفتن ورد الامن الى نصابه فيها . فانفرد الامراء المصريون بالعرش السوداني ووضعوا يدهم على



مقابر مروة الملكية

طرقه الموصلة الى مصر واحتفظوا بذهبه وخيراته وبعدما كانت ايتيوبيا مستعمرة مصرية صارت مملكة مستقلة ثم غزت مصر فصارت مستعمرة ايتيوبية ومما يثبت لنا ذلك ان وجوه هؤلاء الحكام السودانيين وجدت على الآثار قمحية اللون وليست سوداء كما ان اعمالهم وديانتهم ولغتهم الرسمية كانت كلها مصرية وصارت نبته عاصمة السودان في ذلك الحين فاصبحت هذه المدينة بطبيعة الحال أول عاصمة لمملكة ايتيوبيا وامتدت سلطة هذه المملكة تدريجاً فبلغت البحر الابيض المتوسط شمالاً والنيل الابيض وحدود الحبشة جنوباً . واستمرت المملكة السودانية تحكم في نبته هذه البلاد الشاسعة ثمانين سنة كانت معاصرة فيها لمملكة اشور ثم قامت بين هاتين المملكتين حروب عديدة كان النصر في معظمها حليف الاشوريين وعلى أثر ذلك تقلص النفوذ السوداني عن مصر واقتصر على السودان . وبقيت الحكومة السودانية في نبته ٣٥٠ سنة شيدت في اثنائها اهرامات نبته العديدة التي ابتدأها طهراقة . وتغيرت الاحوال بعد ذلك تدريجاً فتأسس من العائلة المالكة فرع في مروة أخذ يقوى حتى بسط نفوذه على نبته ويرجع ذلك الى شح الذهب وقلة التجارة في شمال ايتيوبيا والى كثرة خيرات ومزروعات جنوب ايتيوبيا فنشأ عن ذلك ان الملك نستاسن الذي اصله من مروة اعتلى عرش نبته ثم انضمت نبته الى مروة فصارت مروة عاصمة السودان حتى سنة ٣٥٠ بعد الميلاد

الخط والصناعة

معلوم ان السودان كان مركزاً للنفوذ المصري في اعالي النيل ومنه انتشرت مدنية مصر وحضارتها الى البلدان المجاورة على توالي الايام . اما بلاد الحبشة فكانت مركزاً للمدنية اليمامية الآتية من بلاد العرب فهي لذلك أقل مكانة ورفعة من القطر السوداني . وقد كان لكل من هذين المركزين خط (كتابي) يمتاز به عن الآخر من جهة اخرى . ولما كان النفوذ المصري في السودان مختلفاً

عن النفوذ السامي في الحبشة بدأ كل من هذين النفوذين يقوى ويجمع تحت لوائه الاهالي القاطنين اراضيه مدة حكم المملكة السودانية ومملكة اكسوم الحبشية اما زنوج اواسط افريقية فكانوا نائمين في سباتهم العميق غير متأثرين بعوامل داخلية او خارجية ما لم تكن مشفوعة بالقوة والشدة

ان سكان السودان وبلاد الحبشة خليط من العناصر . فاكثر العناصر عدداً في بلاد الحبشة هو العنصر السامي الآتي من جنوب بلاد العرب واليمن اما في السودان فالعنصر الليبي والسامي هما الاكثر عدداً . وسكان السودان الاصليين قوم غامقو اللون لاصلة لهم بزنوج افريقية ومع ذلك فان هنا لك قوماً تظهر عليهم ملامح الزنوج واهالي السودان المصريون وهم نتيجة اختلاطهم البشرى

بدأ الخط الهيرغليفي يقل استعماله تدريجاً في السودان بعد وفاة الملك نستاسن آخر ملوك مملكة نبته . أما في مروة فان قلة استعمال الخط المصري القديم استمرت حتى زمن الملك ارجامينيس السوداني الذي حكم من ٢٢٥ الى سنة ٢٠٠ قبل الميلاد . والظاهر ان هذا الملك تربى في سراي البطالسة في مصر ولا بد ان يكون قد صاحب بطليموس الرابع فتمكن بذلك من احضار عدة من الصناع المصريين الى السودان وبذلك ادخلت الى مملكة مروة من جديد بعض المدنية والعلوم المصرية فاصطبغت اعمال هذه المملكة بالصبغة المصرية ثانية . وحوالي سنة ٢٣ بعد الميلاد اي بعد غزو الرومان للسودان ادخلت الحضارة المصرية الى ذلك القطر فاصلح معبد أمون في نبته بعد ما أتلفه الرومان . وفي سنة ١٠٠ بعد الميلاد أرسل الى السودان عدة صناع مصريين لنشر العلوم والمعارف والصنائع المصرية . وهذا التطور في نفوذ مصر ومدنيتها في السودان صحبه ظهور خط سوداني مخالف تماماً للخط المصري القديم ومن ثم اخذ هذا الخط يتدرج في الاتقان حتى بلغ اقصى درجاته في عهد مملكة مروة السودانية

وغني عن البيان ان معرفة القراءة والكتابة كانت الفرق بين زنوج افريقية من جهة والاحباش والسودانيين من جهه أخرى . فاهل الحبشة يتكلمون العربية ويستعملون في كتاباتهم خط جنوب بلاد العرب . أما السودانيون فاستعملو أولاً الخط الهيروغليفي ثم خطاً شبيهاً به ولكنه مختلف عنه قليلاً ثم استعملوا خطاً معرجاً لاشبه بينه وبين الخط الهيرغيلفي . وقد توصل المستر جريفث استاذ علم الآثار في جامعة اكسفورد الى حل احرف هجاء الخطين الاخيرين فتمكن بذلك من قراتهما . ثم توصل بعد ذلك الى معرفة معنى ما يقرب من خمسين كلمة لكن يلاحظ ان هذا العمل صعب يتطلب مدة طويلة وصبراً عظيماً . واستدل من الحفر الحديثة ان خط مروة هو اختراع اهل السودان توصلوا اليه بما عرفوه عن الخط اليوناني أيام عهد البطالسة والخط العربي من بلاد الحبشة. واتضح ان الخط السوداني يوافق تماماً لغة السودانيين وكيفية نطقها . ثم ان اهل السودان اخترعوا بعد ذلك نوعاً آخر من الخط استعمل للمخاطبات الرسمية وعلاقته بالخط الاول كعلاقة الخط الهيرغليفي بالديموطيقي فاستدل من ذلك على تمدن السودانيين وذكائهم وبقي الخط السوداني مستعملاً حتى سنة ٥٠٠ بعد الميلاد لما استبدل تدريجاً بالخط اليوناني

وظهر من الحفر التي حفرت في مروة ان الصنائع السودانية تغيرت تدريجاً بتأثير النفوذ اليوناني . نعم ان مدنية السودان مصرية الاصل الا انه عثر في تلك الجهة على مصنوعات يونانية يرجع تاريخها الى القرن الخامس قبل الميلاد. مثال ذلك كأس الشرب التي عثر عليها في قبر طفل ملكي فقد وجد عليها اسم الخزاف اليوناني سوتاريس الذي عاش حوالي سنة ٤٥٠ قبل الميلاد . وهذه الكأس مركبة على حصان من الخزف غاية في الجمال وقد استدل منها على وجود علاقة بين السودانيين واليونانيين بطريقة من الطرق . ويرجع تاريخ معظم الآثار اليونانية التي اكتشفت

في مروة الى العهد الروماني واليوناني . واليك بيان الآثار التي عثر عليها في تلك الجهة

(١) رأس تمثال للمعبودة أثينا اليونانية اله العقل والحكمة يرجع تاريخه الى حوالي سنة ١٢٥ قبل الميلاد

(٢) كأس من الزجاج الملون عليها شكل المعبودة حاتحور المصرية يرجع تاريخه الى حوالي سنة ١٠٠ ق . م

(٣) خاتم مصنوع من مزيج الذهب والفضة يرجع تاريخه الى حوالي سنة ١٠٠ ق . م

(٤) كأس كبيرة من الفضة مرسوم عليها ملك يحاكم مجرماً يرجع تاريخها الى سنة ٥٠ ق . م .

(٥) خاتم ذهبي لم يعرف تاريخه

(٦) رأسان لتمثالي احدى معبودات اليونان مصنوعان من البرنز يرجع تاريخهما الى حوالي سنة ٢٠ ق . م .

(٧) مسرجة من البرنز مصنوعة بغاية الاتقان عليها ورقة نبات يرجع تاريخها الى حوالي سنة ١٠٠ بعد الميلاد

(٨) اناء كبير من البرنز له يدان على حافته رسم كلاب وفي وسطه من الداخل نقوش رجع تاريخه الى حوالي سنة ١٠٠ بعد الميلاد

(٩) — عدة مسارج على شكل حيوانات مختلفة خرافية يرجع تاريخها الى القرن الثاني بعد الميلاد

(١٠) — اناء كبير من البرنز مرسوم على حافته اولاد وضفادع يرجع تاريخه الى القرن الثاني بعد الميلاد

المصاغ الملكي

اوردت في مقالي السابق ملخص الآثار السودانية التي يرجع تاريخها الى العهد اليوناني والروماني التي يظهر عليها انها من صنع يوناني والآن اذكر القارىء بانه عثر في جهة مروة على عدة اوان خزفية بعضها من صنعة سودانية والبعض الآخر من اصل اجنبي وعثر على عدة قطع من الحلي والمصاغات ذات صبغة يونانية غاية في الابداع . وعثروا في جهة نبتة بالقرب من الشلال الرابع على عدة اوان وصحون مطلية بالزجاج الاحمر البديع وأوان اخرى مستطيلة الشكل لها مقبضان يرجع تاريخها الى عهد البطالسة. واكتشفت بعض هذه الاواني في مروة ايضاً . واستدل من ذلك على ان نوع الخزف المعروف عند الافرنج باسم امفورا (Amphora) كان معروفاً عند الخزافين السودانيين ويرجع سر ذلك الى توريد النبيذ في داخل هذه الاواني من بلاد اليونان فلما شاهده السودانيون ادخلوه في اوانيهم الخزفية . وعثر على عدة أوان مصنوعة على النمط الروماني في جهات السودان الواقعة بين اعالي النيل الابيض ومروة الواقعة جنوبي نهر الاتبرة يرجع تاريخها الى القرن الاول قبل الميلاد ويظهر ان هذا النوع استورد ايضاً الى السودان من الخارج ثم قلده بعد ذلك خزافو مروة

ولما فحصت الحلى (المصوغات) والصناديق المصنوعة من العاج التي وجدت في مروة اتضح ان الذوق اليوناني غير واضح فيها جلياً بل ان معظم اشكال تلك الحلي هي مصرية في الاصل وانما ادخل عليها تغييرات يونانية حديثة

ولم نهتد حتى الآن الى كيفية وصول هـذه المصنوعات الاجنبية الى بلاد السودان بالضبط ولذلك لابد من ان خط المواصلات بين مصر والسودان كان مستعملاً في العصور التي نحن بصددها أو على الاقل في العهد اليوناني . فانه لما انتشرت الحضارة اليونانية في الدلتا وغزا الاسكندر المقدوني مصر امتلأت

الاسواق التجارية المصرية بالمصنوعات الاجنبية فسهل بذلك دخول تلك المصنوعات الاجنبية الى السودان غير ان استرابو ذكر ان أحد سفراء السودان زار اوغسطس الروماني في جزيرة ساموس حوالي سنة ٢٢ قبل الميلاد ودلتنا النقوش التي تركها المرويون على جدران معبد جزيرة اسوان على ان السودانيين ارسلوا الى الرومانيين عدة رسل في ذلك الوقت علاوة على ان العلاقات الودية قبل ذلك كانت بالغة منتهاها فلا يبعد والحالة هذه ان تكون تلك المصنوعات الاجنبية قد ارسلت الى السودان على يد السفراء الرسميين المذكورين

وهذه المصنوعات الاجنبية هي جزء صغير مما وجد في داخل المقابر الملكية السودانية غير انه اتضح للاثريين ان معظم هذه المقابر سرقها اللصوص من عهد بعيد من غير ان يتركوا فيها شيئاً يذكر . اما المصنوعات التي ذكرناها في ما تقدم فقد عثر عليها الاثريون صدفة واتفاقاً مبعثرة بين الاحجار بعيدة عن مقابرها الاصلية فاستنتج من ذلك ان هذه المصنوعات لابدان تكون سقطت من اللصوص أو تركوها سهواً في اثناء ارتكاب جناياتهم الشنيعة . ولا يبعد ان مقابر السودان القديمة كانت تحوي موميات متقنة الجهاز كاملة الحلى المرصعة بالاحجار الكريمة كما ان اثاث تلك المقابر لا بد ان يكون من المصنوعات البديعة كالاسرة الخشبية المطعمة المنقوشة وصناديق الزينة والروائح العطرية المزينة بالرسوم الجميلة والمطعمة بالعاج عدا الخواتم والاقراط والاساور والعقود والاحذية والتيجان الذهبية والاقواس والسهام وآلات الطرب كالصفارات. وقد اهتدى الاثريون الى معلومات تثبت وجود كل هذه الاشياء في داخل المقابر من قديم الزمان . واليك بيان الحلى التي عثروا عليها في اثناء مباحث البعثة الاميركية وهو من صنع اهل السودان انفسهم

١ — عشرون خاتماً ذهبياً يتراوح تاريخها بين سنة ١٠٠ ق. م الى سنة ١٠٠ بعد الميلاد

٢ — عدة خواتم ذهبية ذات بصمات من زمن الخواتم الذهبية المذكورة آنفاً

٣ — ستة عشر زراً ذهبياً مكسوة بالاحجار الكريمة

٤ — عشرة عقود وسبع اساور معظمها ذهبية

٥ — ستة اجواز من الاقراط الذهبية بعضها ذهب محض والبعض محلى بالاحجار الكريمة

٦ — عدة احجبة ذهبية يلبس بعضها في الرقبة والبعض الآخر في المعصم وبينها جعران ذهبي ومقبضين لعصاتين ذهبيين جميلين

٧ — عدة قطع ذهبية مجوفة كانت تحلى بها اطراف الاقواس

وعثروا ايضاً على قاعدتين حجريتين لتابوتين ملكيين على احدهما نقوش مصرية هيرغليفية وهما الملك ارجامينيس الذي يرجع تاريخه الى حوالي سنة ٢٠٠ قبل الميلاد وعلى الآخر نقوش مروية وهي للملك ناهيركا الذي يرجع تاريخه الى حوالي سنة ١٦٠ قبل الميلاد . وعثروا ايضاً على عدة مرايا من البرنز في مروة يدها مصنوعة من مزيج الذهب والفضة على شكل زهرة اللوتس

الى مكاتب التيمس

يعز علينا أن تكتب جريدة التيمس مقالاً رئيسياً لها ومقالاً آخر لاحد مكاتبيها بتاريخ ٢٨ اغسطس الماضي القصد منهما تمحيض الحقائق التاريخية التي سردتها على صفحات المقطم الاغر والتي لم اكن آمل منها الا اظهار الحقائق وانارة اذهان العامة . اما الآن وقد انكرت جريدة التيمس كل علاقة دموية بين اهل السودان وقدماء المصريين فقد رأيت ان ارد عليها بسرد حقائق تاريخية لاقنعها بأن اقوالها غير مطابقة للحق

نحن لا ننكر ان العلم ضالة ينشدها كل واحد مهما ارتفعت منزلته العلمية ولكن ذلك لا يسوغ لنا ان نقلب الحوادث التاريخية رأساً على عقب وخصوصاً انني لم اقصد بمقالاتي الاثرية الا البحث العلمي واظهار الحقائق جهد الطاقة :

يجب علينا ان نعرف قبل الدخول في هذا الموضوع ان المصريين القدماء كانوا يستخرجون الذهب بكثرة من مناجم عديدة في السودان . ولا ادري لماذا يرمي الانكليز قدماء المصريين بالطمع بالذهب السوداني كأن ذلك سبة أو معرة مع ان بريطانيا العظمى هي اكبر امة تستخرج الذهب بل المعادن كلها في انحاء المعمورة . وليعلم ان للمصريين حقاً يسوغ لهم استخراج الذهب لان وادى النيل كله كان في اعتبارهم وطنهم الاصلي . ولما كان اسم الذهب باللغة الهيرغليفية هو « نب » اطلق المصريون هذه الكلمة على السودان فسموه « نب » أيضاً ثم حرف القوم بعد ذلك هذا الاسم فصار « نوبيا » فمن ذلك فقط يتضح ان لفظ نوبيا هو مصري صميم وان الاقليم المسمى به هو مصري ايضاً من غير نزاع

ولاثبات العلاقة المتينة التي كانت بين قدماء المصريين والسودانيين التي ينكرها الانكليز انكاراً تاماً ما علينا الا ان نحول نظر القارىء الى حجر اثري محفوظ في متحف القاهرة بالدور الاول في الجناح الايسر بالحجرة الحاوية لتمثال بقرة حاتحور . هذا الحجر جيء به من الكرنك وعليه نقوش منقسمة الى قسمين أعلى وأسفل . فالذي في اعلاه هو رسم صورة الملك تحوتمس الثالث في شكل يقرب نقرابين ويهدي الهدايا لبعض الآلهة وهم وقوف بين يديه والاسفل الفاظ اثرية وشعرية مقولة على لسان آمون معبود طيبة وهو يخاطب الملك أحسن مخاطبة ومما جاء في القسم الاعلى ما يأتي :

« ادن مني وتمتع بفضلي وكرمي يا من انتقمت لي ممن عاندني وعش الى الابد يا تحوتمس الثالث فانني ازدهي بدعواتك واتباهي بصلواتك ويبتهج قلبي بحضورك في هيكلي وها انا احوطك باذرعي واحنو عليك بقوتي وعظمتي ليسرى فيك سر الحياة والنجاة . وحبذا الصدقات التي اهديتها لجنابي بالصورة التي اقمتها في محرابي . أنا الذي منحتك القوة والنصر على جميع امم العصر . . . »

ثم يلي ذلك ابيات شعرية انشدها آمون جاء فيها ما معناه : —

« ها أنا قد جئت وابحت لك ان تضرب رؤوس ملوك فينيقية ولقد اوقعتهم تحت اقدامك ودفعتهم أمامك حتى اخترقت اقطارهم . وأريتهم جمال حضرتك واطلعتهم على جلالتك فصاروا ينظرون سعادتك كملك مجسم من نور فاصبحت تشرق عليهم كصورتي البهية وتبدو لهم كذاتي العلية

« ها أنا قد جئت وابحت لك ان تطعن بسيفك سكان بلاد آسيا وتقبض في اسرك رؤساء (الرتنو) ولقد أريتهم جلالتك متمنطقة بنطاق قابضة اسلحتها مقاتلة على مركباتها

« ها أنا قد جئت وابحت لك ان تضرب بلاد الشرق وتجوس خلالها حتى مدائن الارض المقدسة وقد اريتهم جلالتك ككوكب سهيل الذي ينشر النور مع الايضاح وينثر الندى في الصباح

« ها انا قد جئت وابحت لك ان تضرب بلاد الغرب فكل في بلاد (كيفا) وقبرص في ربقة الفزع منك . حيث أريتهم جلالتك كثور فتي زين بقرنين لا يقاومه شيء اياً كان

« ها أنا قد جئت وابحت لك ان تضرب سكان سائر الخطط الارضية فبلاد (متاني) ترتعش بحضرتك اجلالاً لهيبتك اذ أريتهم جلالتك كفرس البحر وهو الملك القهار في مملكة البحار منيع الجوار لا ينجو منه ديار

« ها أنا قد جئت وابحت لك ان تضرب سكان الجزائر (كقبرص وارخبيل اليونان) فسكان البحار في فزع من صياح قومك بشعائر الحرب اذ أريتهم جلالتك كمنتقم جبار يعلو ظهر فريسته

« ها أنا قد جئت وابحت لك ان تضرب الليبيين ولتكن جزر (الادنائيين) في قبضة اسرك اذ أريتهم جلالتك كأسد يهول كل من نظر اليه ويرقد على رمم موتاهم في خلال اوديتهم بحيث لا يتيسر لاحد ان يقدم عليه

« ها أنا قد جئت وابحت لك ان تضرب سكان البحر الابيض المتوسط فكل من احاط بهذا البحر الاعظم هو في قبضتك اذ أريتهم جلالتك كباشق يحوم في الجو بطيره ويختطف كل ما اعجبه بمخلبه

« ها أنا قد جئت وابحت لك ان تضرب الاقوام القاطنين في المستنقعات وليكن القوم الذين يسمون بسكان الصحارى في اسرك اذ أريتهم جلالتك كثعلب بلاد الجنوب الذي يختفي في سيره فيقطع البلاد ويخترق الاراضي البعاد

« ها أنا قد جئت وابحت لك ان تضرب متوحشي النوبة . وليكن الجميع حتى اقوام (شات) تحت تصرف يدك مستعدين لمددك . فقد أريتهم جلالتك كما ينظر الاخ الى اخويه فيحنوان عليهم وتجتمع اياديهم اليك ليشدوا عضدك »

وبعد هذا الكلام الشعري والاستدراك الفكري يمدح المعبود آمون الملك تحوتمس الثالث قائلاً . إنني أنا الذي حميتك بحمايتي يا ولدي العزيز ورعيتك برعايتي يا ايها الثور الشجاع المتسلطن باقليم الصعيد الاوسط »

يتضح لك ايها القارىء من هذه المقالة التي هي اجمل انموذج للآداب المصرية مآثر الملك تحوتمس الثالث التي نالها بشدة عزمه وقوة حزمه من سنة ١٥٠١ الى سنة ١٤٤٧ قبل الميلاد . ويلاحظ أيضاً ان هذه الفتوحات عدت نصراً عظيماً لقوة فرعون وشدة سلطته الحربية لترامي اطراف البلاد التي ادمجت في المملكة المصرية أما غزوات السودان فعبارة عن اخضاع متوحشيه ليس الا . ولقد فسر الاثر ذلك باسلوب لا يقبل شكا ولا جدلا لما شبه أهل القطرين المصري والسوداني باخوة من عائلة واحدة يحنو كل منهما على الآخر وجميعهم يجمعون أياديهم ليشدوا عضد فرعون مصر . فهل يسوغ لنا بعد ذلك ان ننكر ان مصر والسودان كانا في القرن الخامس عشر قبل الميلاد قطرين مكملين ومتممين الواحد للآخر . واذا جرأت التيمس على ذلك فما عليها الا ان تفسر لنا معنى العلاقات الاخوية الواردة في الاثر المذكور .

يظهر ان جريدة التيمس لا تصدق الا أقوال الدكتور وليس بدج الاثري في هذا الموضوع . لذلك رأيت ان ألفت نظرها الى اقوال هذا الاثري في كتابه عن تاريخ ملوك نوبيا فقد جاء في الوجه الرابع والعشرين من مقدمة هذا الكتاب ان المرحوم الاستاذ ماسبرو اعتقد ان القوات المصرية في عهد الملك أوسرتسن الثالث الذي حكم من سنة ١٨٨٧ الى سنة ١٨٤٩ قبل الميلاد وصلت الى الاقاليم الواقعة جنوبي اتبرة

وجاء أيضاً في الصفحة السادسة والعشرين من تلك المقدمة ما تعريبه : ان امنحتب الاول الذي جاء حوالي سنة ١٥٥٧ قبل الميلاد غزا السودان وأسر عدة اسرى واغنام ووصل بجنوده الى ارض المنتو أو أرض الاغنام وهو أقليم وصفه الدكتور بدج بانه واقع جنوبي الخرطوم . فهل يجوز لكاتب التيمس بعد هذا كله ان يقول ان قدماء المصريين لم يدعوا سيادة ما على قسم من أقسام السودان جنوبي نبته وان المصريين لم يفكروا قط في المطالبة بجزيرة مروة . مع ان مروة واقعة شمالي الخرطوم على بعد عدة أميال وان نبته واقعة قرب الشلال الرابع . لا مشاحة في ان حجج هذه الجريدة غير مطابقة للحقيقة والتاريخ ويظهر ان السبب الاصلي الدافع لنشر هذه الاباطيل في الاحوال الحاضرة هو الاضرار بالقضية المصرية العادلة

الخاتمة

الآن وقد شرحت للقارىء تاريخ السودان القديم وعلاقته بالقطر المصري منذ زمن الملك مينا الى عهد الميلاد المسيحي فيجدر بنا اليوم ان نستنتج مما قيل بعض الحقائق والمعلومات لان التاريخ يعيد نفسه ولان ما يجري الآن بخصوص السودان سواء كان هنا أو في بلاد الانكليز ماهو الا تكرار لما حدث منذ آلاف السنين فالباحث في هذا الموضوع من بدايته الى نهايته يتضح له ان موضوع السودان الحديث الذي تتداوله اقلام كتاب المصريين والانكليز ليس بالشيء

الجديد الذي يحتاج الى درس طويل وخبرة كبيرة قبل التمكن من الحكم فيه . كما ان موضوع القطر السوداني وعلاقته بمصر بل حياته مرتكز ارتكازاً تاماً على القطر المصري دون سواه . لان المصريين هم أقدم اناس عاملوا السودانيين وعاشروهم . فهم أدرى من سواهم باخلاقهم وطبائعهم وديانتهم وبعبارة أخرى ان المصريين ليسوا في حاجة الى ان يفهمهم أحد من هم السودانيون وما هي أوصافهم

معلوم ان المصريين والسودانيين من أصل واحد استوطنوا وادي النيل بعد ما هاجروا بلاد العرب الى الصومال . ومعلوم ان خصالهم وطبائعهم واحدة لان ذلك أمر موروث يمتاز به عنصرهم عن سائر العناصر . فهم بطبيعتهم جنس ساكن ميال الى الهدوء والسلام قليل الجشع والطمع كثير الاحترام للعقائد الدينية حيثما وجد أليف سريع العفو عنده من الشمم وعزة النفس ما جعل له شهرة بين امم الارض على توالي الاجيال. ومعلوم أيضاً ان وادي النيل من حيث موقعه الجغرافي أشبه شيء بواحة كبيرة في وسط صحاري واسعة منعزلة تماماً عن كل ما يجاورها من البلاد المعمورة . فالباحث في هذا الوادي يجده محدوداً شمالاً بالبحر الابيض المتوسط وشرقاً وغرباً بصحاري كبيرة تسير فيها الناس اسابيعاً بل شهوراً حتى تصل الى مكان معمور وجنوباً بمستنقعات وصحاري تكاد تمنع كل اتصال باواسط افريقية

ولهذه العزلة تأثير كبير على مدنية وادي النيل وحضارته . لان المدنية في نظر بعض الفلاسفة نتيجة المعيشة في الاودية وعلى شواطىء الانهار حيث تكثر الزراعة والفلاحة وحيث يحتاج الانسان الى تفكير لابتكار طرق الزراعة وتنظيم الري وتشييد المساكن . وهذه الشروط لتوافرها أشد توافر في وادي النيل انتجت نتاجاً حسناً وأظهرت للعالم من الحضارة والارتقاء ما ادهش العقول وحير الالباب :

ولا يخفى على القارىء ان أصل اللغة المصرية القديمة واللغة العربية واحد كما أثبت ذلك المرحوم احمد كمال باشا فقد أظهر ذلك الاثري العظيم ان الاختلاف الظاهر في هاتين اللغتين ليس الا نتيجة اسقاط بعض كلمات في بلاد العرب وبقائها في وادي النيل والعكس بالعكس زد على ذلك ما يعتري الكلمات من القلب والابدال وما يعتريها من التغير بمعاملة الاجانب على مر الدهور

والمطلع على المقالات السابقة يستنتج نتائج ذات علاقة كبيرة بموضوع السودان الذي لايزال رهن المفاوضات المقبلة فمن هذه النتائج ان سكان مصر والسودان من نسل واحد استوطن وادي النيل بعد ما أتى من بلاد العرب. وأن اصل لغتي هذين القطرين واحد. وان وادي النيل من منبعه الى مصبه هو واحة مستقلة بذاتها لا يمكن تقسيمها لارتباط اهلها بعضهم ببعض ولاستحالة التفريق بينهم لضرورة تعاملهم

وقد اثبت لنا التاريخ ان تقسيم وادي النيل الى ممالك مستقلة بعضها عن بعض لا يعود عليه الا بالفوضى والخراب لان ذلك اشبه شيء بانقسام افراد عائلة على نفسها فيقتل الاخ اخاه والاب ابنه كما حدث عند غزو الهكسوس فالاشوريين فالفرس. واتضح لنا أيضاً من الحوادث التاريخية انه كلما أتحد سكان وادي النيل وتعاونوا ارتفع شأنهم وارتقت بلادهم وعجز غيرهم عن اخضاعهم كما كان ذلك ايام العائلات الخامسة والسادسة والثانية عشرة والثامنة عشرة والتاسعة عشرة

وليعلم ان مصر والسودان امتان مكملتان ومتممتان الواحدة للاخرى أي ان ما ينقص احداها توجده الاخرى وما تعجز عنه واحدة تقوم به الثانية. ففي الشوط الاول من التاريخ القديم كانت السيادة على وادي النيل للمصريين والسودانيين معاً. ثم توحدت السلطة في ايدي المصريين ثم انتقلت بعد ذلك الى السودانيين بلا مشاحنة تذكر لما بين القطرين من الصداقة والقرابة وكثيراً ما كان السودان يطلب مساعدة مصر أيام تهديده ومحنه كما كانت مصر تستنجد

بالسودان عند تعرضها للخطر والهلاك . ولولا ذلك التضامن لما ظهرت مدنية ولا حضارة في وادي النيل

فعلاقة السودان بمصر اشبه شيء بعلاقة بلاد ويلس بانجلترا . فكما ان حاكم السودان كان ولي عهد المملكة المصرية كذلك ولي عهد انكلترا لايزال يلقب بامير بلاد ويلس . فاذا قال لنا الانكليز ان مصر يمكنها أن تعيش من دون السودان وجب علينا ان نسألهم وهل انكلترا يمكنها ان تعيش من دون ويلس وتحافظ في الوقت نفسه على عزتها ومركزها في العالم ؟ ان علاقتنا بالسودان اشد جداً من علاقة انكلترا ببلاد ويلس لاننا مرتبطون مع السودان بمياه حياتنا ودمائنا واهلنا وديانتنا فانفصال مصر عن السودان لايعني به الا الخراب للاثنين معاً أما في بريطانيا فويلس كانت من قديم الزمان مستقلة عن انجلترا الا انها في العهد الاخير ضمت اليها كما ضمت مصر في زمن الحرب الى الامبراطورية البريطانية أيضاً

اما القول بان وجود الانكليز في السودان يمنع تعديه على مصر فيجب ان لا يلتفت اليه ولا يعتبر موضوعاً للمباحثة والمناقشة اذا كان القصد منه الارهاب والتفريق بين السودان ومصر لان اهالي هذين القطرين يؤلفون عائلة كبيرة يجب ان يرئسها فرد منها . فسواء رأس وادي النيل مصر أو السودان فناس الوادي لا تزال راضية لانها تعلم ان لكل منهما حقا في الاشتراك في ادارته . فهذا التخويف يجب ان لا نعتبره الا حقاً شرعياً لا سيا وانا أول أمة في العالم اظهرنا الحق على الباطل وارشدنا العالم الغربي الى العدالة وزودناه بالعلوم والمعارف حتى بلغ مدنيته الحاضرة : فللمصري وللسوداني حق في ادارة شؤون وادي النيل بلا نزاع وذلك باقرار اجدادنا وأجداد اجدادنا فهذا الحق لا يجب ان يتخذه الانجليز وسيلة للتفريق بين القطرين أو لتخويف فريق من الآخر

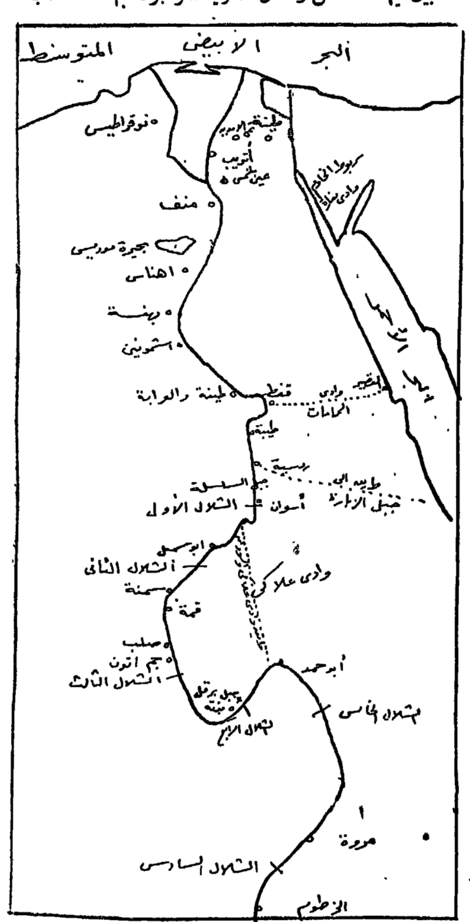
يقول أحد الكتاب الانكليز ان الملك بيعنخي السوداني حكم مصر ثم اتى بعده أفراد عائلته واستولوا على عرش مصر أيضاً وان ذلك الغزو هو استعمار لا يبعد ان يتجدد اذا ترك وادي النيل لسكانه يفعلون ما يشاؤون فهذا القول لا قيمة له أيضاً لان بيعنخي وعائلته يغلب انهم مصريو الاصل هاجروا الى السودان لوقوع الاضطرابات والخلل في ادارة القطر المصري فاستنجدوا باهالي السودان لينقذوا مصر من ذلك الدمار. وساعدهم على ذلك كهنة آمون بطيبة الذين هاجروا الى السودان أيضاً ثم اتى بيعنخي وانقذ هذا القطر وقضى على فتنه وأظهر كل شفقة وحنو على أهله مما يثبت تقديره لوطنه الاصلي ومحبته للقطرين المصري والسوداني

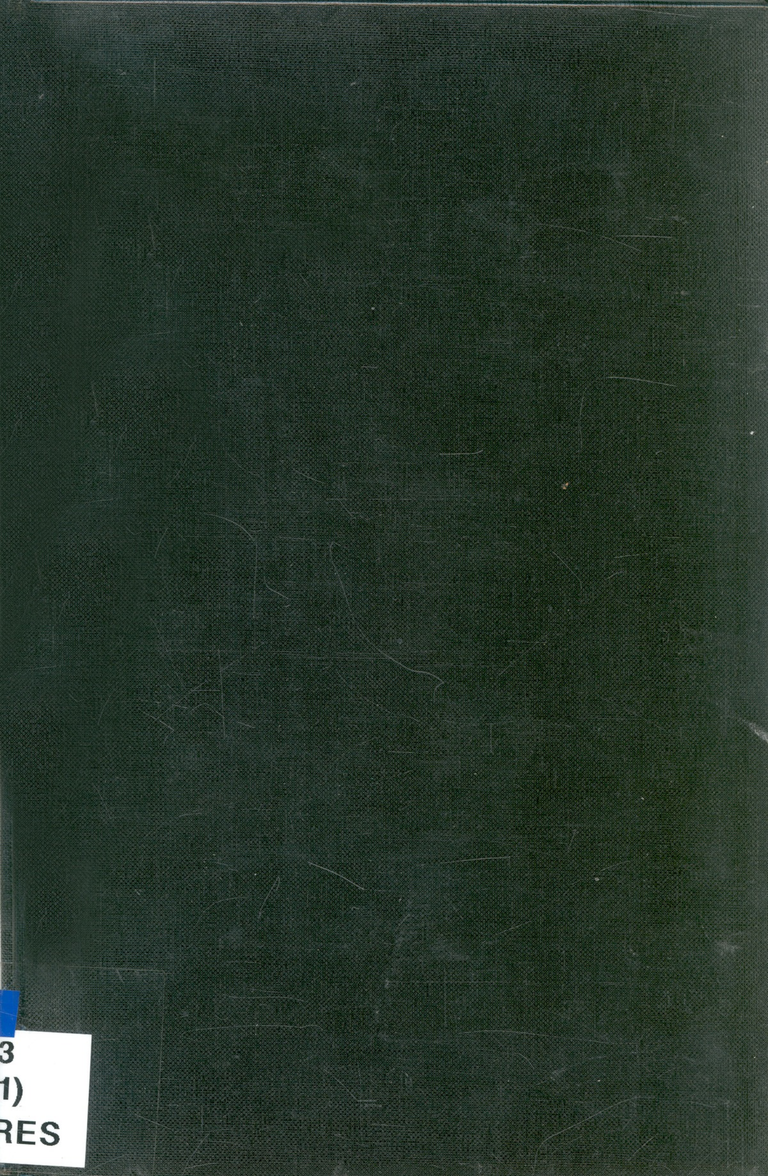
فهرست

أهمية السودان عند قدماء المصريين	صحيفة	٤
كيف استعمر المصريون السودان	»	١٠
السودان تحت حكم توت عنخ امون	»	١٣
أستخراج الذهب	»	١٦
هجرة كهنة امون رع الى السودان	»	١٩
انقلاب العلاقات السياسية	»	٢٢
اكتشاف مصري عظيم ونتائجه	»	٢٤
كيف غزا السودانيون مصر	»	٣٠
تفرق الكلمة ونتائجها	»	٣٣
حشرجة الموت	»	٣٦
نهضة مصر بعد خمولها	»	٤٠
غزوة قمبيز وحبوطها	»	٤٣
مأثرة للسلطان الكامل حسين الاول	»	٤٦
الكلام على مروة	»	٥٠
تقهقر العاصمة الى الشلال السادس	»	٥٣
طرق البحث عن آثار السودان	»	٥٦
اكتشافات أثرية حديثة	»	٥٩
انقراض مملكة مروة	»	٦٢
الخط والصناعة في السودان	»	٦٥
المصاغ الملكي	»	٦٩
الى مكاتب التيمس	»	٧١
الخاتمة	»	٧٥

خريطة مصر والسودان

مبين فيها الاماكن والمدن الاثرية الموجودة بهذا الكتاب




3
1)
RES